رحلة في قلب نجد والحجاز

سنة ١٩٢٦



تأليف
محمد شفيق أفندي مصطفى

تحقيق
د. محمد محمود خليل

الدار العربية للموسوعات

رِحْلَةٌ
في قَلبِ نَجْدٍ والحِجاز

رحلة في قلب نجد والحجاز

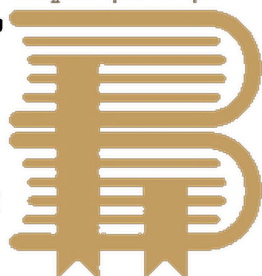
سنة ١٩٢٦م

للصحفي

محمد شفيق أفندي مصطفى

تحقيق

د. محمد محمود خليل



الدار العربية للموسوعات

الطبعة الأولى

٢٠١٠م - ١٤٣٠هـ



الدار العربية للموسوعات

الحازمية - مفرق جسر الباشا - سنتر عكاوي - ط1 - بيروت - لبنان
ص.ب: 511 الحازمية - هاتف: 952594 5 00961 - فاكس: 459982 5 00961
هاتف نقال: 388363 3 00961 - 525066 3 00961 - بيروت - لبنان
الموقع الإلكتروني: www.arabenchouse.com البريد الإلكتروني: info@arabenchouse.com

مؤسسها ومديرها العام: خالد العاني

مقدمة

ذكر مؤرخ الجزيرة العربية الشيخ حمد الجاسر في صدر رحلته لشمال غرب الجزيرة ما نصة «لا تزال بلادنا بحاجة لدراسة متعددة النواحي... ولا ينفي هذا أن من بين المؤلفين من رحل إلى البادية ليتقصى الحقيقة، غير أن طبيعة البلاد في ذلك العهد وطغيان النفوذ القبلي في أنحاء الجزيرة من الأسباب التي لا تمكن الباحث من التوغل في وسط الجزيرة، بل إلى جوانبها وأطرافها البعيدة، لهذا كانت الرحلات تقتصر على البوادي القريبة من الحواضر، حيثما كان الحكم إذ ذاك تجعلها آمنة»(١).

ذلك دفع شيخنا حمد الجاسر لزيارة شمال الجزيرة عام ١٩٧٠م، للإستكشاف عن قريات الملح (وادي السرحان) والجوف وغيرها من البلاد الشمالية إلّا أن قريات الملح والجوف هما ما يهمنا في تلك الرحلة التي قطعها شيخنا حمد من أجل عمل دراسة عن تلك المناطق التي لم توضح أو تذكر جيداً في كتب الرحالة والبلدانيين العرب، ونكتفي بشهادة حمد الجاسر لنعرف مدي أهمية الرحلة التي نحن بصددها إلا وهي «رحلة في

---

(١) حمد الجاسر: في شمال غرب الجزيرة، دار اليمامة- الرياض، الطبعة الأولى ١٩٧٠م، ص ٣.

قلب نجد والحجاز» التي قام بها الأديب الصحفي محمد شفيق مصطفى عام ١٩٢٦، ليستكشف هو الآخر تلك البلاد الشمالية من الجزيرة العربية ويعرف أحوالها ويصف جغرافيتها وأوضاعها الدينية والإقتصادية بالإضافة إلى النواحي الإجتماعية والعمرانية والسياسية، التي لم يغفلها أثناء حديثه عن رحلته التي قام بها على ظهور الإبل، وبالرغم من أن رحلته جاءت موجزة لا يشوبها إسهاب قط، إلّا أن مدوناته التي كتبها أثناء رحلته جاءت في غاية الأهمية حيث إنفرد بمعلومات لم تأتي من قبل خاصة وأن توقيت الرحلة عام ١٩٢٦ أتى في مرحلة مهمة من مراحل تأسيس المملكة العربية السعودية بعد ضم الحجاز إلى سلطنة نجد وملحقاتها بعام واحد، فأصبحت معلومات هذه الرحلة شهية مثل رائحة الخبز الطازج أو بشاير الفاكهة غالية الثمن، وهنا تكمن أهمية الرحلة، فقد سبق محمد شفيق مصطفى أقرانه العرب من الرحالة في إستكشاف شمال الجزيرة العربية، حتى أبناء الجزيرة أنفسهم وعلى رأسهم شيخنا حمد الجاسر الذي بدأ رحلته للشمال عام ١٩٧٠.

تمهيد

في صيف ١٩٢٦ إستقبلت مصر الأمير سعود بن عبد العزيز آل سعود ولي عهد نجد والحجاز، بدعوة رسمية وجهها الملك فؤاد إلى السلطان عبد العزيز اينذاك قبل إعلانه الملكية في نفس العام، وقد رافق القنصل المصري بجدة الأمير سعود خلال رحلته من جدة إلى القاهرة.

وكان على رأس المرحبين بولي العهد، الزعيم المصري سعد باشا زغلول رئيس مجلس النواب، وذلك بمقر دار الضيافة بالمنيرة[١].

وقد صاحب الأمير سعود في تلك الرحلة حافظ وهبة المستشار الرئيسي للسلطان عبد العزيز بالإضافة إلى عدد من رجال السلطنة النجدية الحجازية[٢].

كان الدافع من الزيارة أولاً إجراء عملية جراحية في عين الأمير سعود، أجراها له الطبيب سليمان باي هداوي مدير القسم الطبي في إدارة الأوقاف المصرية، أما السبب الثاني هو محاولة إزالة ما علق في

---

(١) مجلة المصور المصرية في ٢٠ أغسطس ١٩٢٦.

(٢) علي بن محمد الزيدي: أهمية مدونات الفرنسي بوصفها مصدراً لتاريخ المملكة العربية السعودية خلال المدة من ١٢١٩- ١٩٢٤، دارة الملك عبد العزيز (الرحلات)، جـ٢، ص ٨٣٥.

نفوس المصريين من جراء وقعة الإعتداء على المحمل المصري في مني بالأراضي المقدسة، وثالثاً دعوة الأمير السعودي النخب الفكرية والسياسية وأصحاب الرأي من المصريين لزيارة الأراضي السعودية والإطلاع على مستجدات الأمور هناك.

حاول الأمير خلال زيارته لمصر على عودة الود والصفاء بين الشعبين المصري والسعودي وساعده على ذلك عدد من رجال السياسية والصحافة على رأسهم سعد زغلول والدكتور محمد حسين هيكل رئيس تحرير جريدة السياسة، إلّا أن السلطة المصرية ويمثلها الملك فؤاد، كانت لا ترغب في تدعيم الخلافات الحميمة بين البلدين، بل كانت تقيم العقبات الواحدة تلو الأخرى أمام رغبة الأمة المصرية في تسوية العلاقات مع الدولة السعودية الجديدة، حيث حاول سعد زغلول ولم يفلح وحاول من بعده عدلي يكن ولم يفلح، مع أن الخلاف لم يكن راجعاً في الأساس إلى مسائل ذات صفة عامة، بل كان راجعاً إلى إعتبارات شخصية متصلة بمقامات سامية يصعب أمر التفاهم معها، إلا وهي رجوع الملك فؤاد إلى أسرة محمد علي باشا ذات الجذور العدائية مع آل سعود[1].

ذكر الدكتور هيكل على لسانه ما قال «أن من الإنصاف أن نقول أن الصعاب التي تعتري علائق مصر والحجاز ترجع إلى ما قبل عهد الوزارة الصدقية لأسباب لا تعرفها مصر والحجاز»[2].

في ذلك الجو جاءت زيارة الأمير سعود الذي دعي المفكرين المصريين لزيارة بلادة وإستطلاع شؤونها وتقريب وجهات النظر بين

---

(١) عبد العزيز شرف، الملك عبد العزيز في مرآة الصحافة المصرية، القاهرة، ص٢٣٢- ٢٣٣.

(٢) راجع الكتاب الصحفي الذي ألفه محرروا جريدة السياسية وأصدروه بعد إغلاق جريدتهم عام ١٩٣٠م، وتناولوا فيه عدد من القضايا منها علائق مصر والحجاز، عبد العزيز شرف، المرجع السابق، ص ٢٣٣.

الشعبين وقد لبي عدد غير قليل من الصحفيين والمفكريين تلك الدعوة وفي مقدمتهم الأديب محمد شفيق مصطفى المندوب في صحيفة السياسة إحدى أكبر الصحف المصرية في ذلك العهد[١].

والجدير بالذكر أن جريدة السياسية أنشئت في ٣١ أكتوبر ١٩٢٢م وكانت الجريدة الوحيدة التي تشترط أن يكون المحررين والمندوبين أيضاً من حملة الشهادات العليا وأغلبهم كان من الحقوقيين وكان رئيس تحريرها الدكتور محمد حسين هيكل، وقد أظهرت تلك الجريدة المعارك الكبيرة، في مجال الفكر والسياسة، كما حملت أفكار حزب الأحرار الدستوري الذي ظهر كإنشقاق فكري وسياسي على التنظيم الوفدي الذي أحدثته ثورة ١٩١٩ وقائدها سعد باشا زغلول[٢].

وبذلك يكون صاحب رحلتنا في قلب نجد والحجاز، أول دبلوماسي صحفي مثقف قام بزيارة دبلوماسية غير رسمية لتحسين الأجواء بين البلدين مصر والسعودية، حيث نشر رحلته في جريدة السياسية على عدد من المقالات المتتابعة وقد شاهدت تلك المقالات إستحسان الشعب المصري الذي عرف الكثير عن أحوال الشعب السعودي الشقيق ذلك مما دفع محمد شفيق لإعادة النشر عام ١٩٢٧ في كتاب خاص يحمل إسم رحلة في قلب نجد والحجاز، طبع في مطبعة المنار بالقاهرة.

وبعد أن عطلت جريدة السياسة عام ١٩٣٠م[٣] استمر الأديب محمد شفيق مصطفى في عمله الدبلوماسي الصحفي حيث أنشأ جريدة تحمل

---

(١) محمد سعد الشويعر، أعمال الملك عبد العزيز بمرآة الصحافة،جريدة الجزيرة، الرياض، عدد الجمعة ٢٢ ربيع الثاني ١٤٢٢هـ.

(٢) حافظ محمود: المعارك في الصحافة والسياسة والفكر بين ١٩١٩- ١٩٥٢، القاهرة ٢٠٠٥م، ص ١٧.

(٣) عبد العزيز محمد شرف: الملك عبد العزيز في مرآة الصحافة، ص ٢٣٣.

إسم الرياض عاصمة الدولة السعودية وكتب على شعار الصحيفة ما نصه «جريدة الرياض لسان حال النهضة الحجازية النجدية». وإحتوت بين دفتيها الأخبار والمقالات الهامة عن الأراضي السعودية والحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية واستمر إصدار تلك الجريدة بين عامي ١٣٤٩-١٣٥١هـ[١]، ونشر الأديب محمد شفيق مصطفى رحلته للمرة الثالثة في جريدة الرياض، وقد كان مقر جريدة الرياض في حي العباسية بالقاهرة وقد كانت جسر للعلاقات السعودية المصرية وقامت بمقام أول ملحقية ثقافية سعودية بالقاهرة.

وفي عام ١٩٨٤ قام الأستاذ عبد الله بن سعد الروشيد بإعادة نشر الرحلة لكن دون دراسة علمية، فنشرها بعد أن أضاف لها بعض التعليقات البسيطة وقام على نشرها رابطة الأدب الحديث بالقاهرة، ثم أعادت نشرها مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة على هيئتها الأولى التي نشرت في جريدة السياسة وجريدة الرياض دون تحقيق أو تعليق أو دراسة وجاءت الطبعات الكثيرة لتلك الرحلة كعلامة على أهميتها حيث طبعت على هيئة كتاب عام ١٩٢٧، وعام ١٩٨٤، وطبعت على هيئة مقالات في صحف عام ١٩٢٦، وعام ١٩٣٠م.

وقد رأيت من واجبي أن أعيد تحقيق تلك الرحلة بعد عمل دراسة علمية لها لأهميتها كمصدر من مصادر الجزيرة العربية في عهد الملك عبد العزيز آل سعود حيث تغطي الرحلة فترة زمنية مازالت تحتاج للمزيد من الأبحاث والدراسات لسرعة التطورات السياسية من ناحية ولأهمية المناطق التي زارها الرحالة خاصة المناطق الشمالية من ناحية أخرى.

---

(١) عبد الرحمن بن صالح الشبيلي: الرياض العاصمة والبدايات المبكرة لوسائل الإتصالات، الدارة - العدد الثاني، ١٤٢٥هـ، ص ٩٦.

وتعتبر الرحلة شاهد عيان لتلك الفترة حيث شاهد الرحالة بعينه وأجرى بنفسه عدد من المقابلات الشخصية من أهمها مقابلته مع الملك عبد العزيز آل سعود وولي عهده الأمير سعود ونائبه على مكة الأمير فيصل بن عبد العزيز إلى جانب عدد من أمراء المناطق، وعبد العزيز بن مساعد بن جلوي، ومبارك بن مبيريك» أضف إلى حديثه عن الأميرة نورة شقيقة الملك عبد العزيز الكبري.

كما أطلع محمد شفيق في رحلته عن مرافقته للطيب بك الهزازي رئيس ديوان جلالة الملك ابن سعود أثناء سفره من الرياض إلى مكة المكرمة.

كما أسهمت الرحلة في الناحية الجغرافية حيث صاحبها ثراء معلوماتي عن البلدان التي مر عليها محمد شفيق خلال رحلته والمسالك بين مصر والأراضي النجدية حيث أوضح أن الطريق الذي سلكه من عمان عاصمة شرق الأردن إلى حدود الأراضي السعودية، وهي قريات الملح ووصف الطريق بأنه صحراوي طوله حوالي ٤٠٠ كيلومتر والمدة بالسيارة حوالي يوم كامل في ذلك الوقت عام ١٩٢٦م، ثم أوضح الطريق الذي سلكه من قريات حتى الرياض ثم من الرياض، إلى مكة المكرمة ومن مكة المكرمة إلى جدة وجاءت كالآتي:

من	إلى	القرى	الوقت	وسيلة المواصلات
عمان	قريات الملح	طريق صحراوي قاحل ليس فيه شيء	يوم	السيارة
قريات الملح	الجوف	قريات الملح - حضوضي - الفرجية - الجوف	٩ أيام	الإبل
الجوف	حائل	الجوف - جبة - قنا - أم حبان - حائل	١٠ أيام	الإبل
حائل	بريدة	حائل - العدوة - الكهفة - القوارة وثال - الشقة - بريدة	٨ أيام	الإبل
بريدة	الرياض	بريدة - أبو شيجر - شجرة - البرة - العيينة - الدرعية - الرياض	٨ أيام	الإبل
الرياض	مكة	الرياض- الشعرا- السيل- مكة	١٧ يوم	الإبل
مكة	جدة	مكة - بحرة - جدة	٣ ساعات	السيارة

إذاً يكون مجموع البلدان التي ذكرها محمد شفيق في رحلته خمسة وعشرون بلدة مر عليها وذكر أحوالها ومناخها وظروفها الإقتصادية والاجتماعية والعادات والتقاليد عن أهلها وقد جاء معظمها موجز ومركز كما أنه إقتصر على ذكر الاسم فقط في بعض الأحيان دون الإشارة إلى أحوال تلك القرى والمناطق.

منهج كتابة الرحلة

يعد إسهام المصريين في أدب الرحلات ضعيفاً إذ ما قورن بالمغاربة مثلاً في العصور الإسلامية، لكن في مطلع العصر الحديث فقد أسهم المصريين إسهاماً جيداً جدير بالإحترام خاصة بالرحلات إلى الأراضي المقدسة فكان معظمهم أما ضباط عسكريون أو أمراء للركب المصري ويأتي في طليعتهم محمد صادق باشا ١٢٣٨- ١٣٢٠هـ، ١٨٢٢- ١٩٠٢م، وكتابة دليل الحج وكوكب الحج ومشعل الحج، ثم إبراهيم باشا رفعت ١٢٧٣- ١٣٥٤هـ، ١٨٥٧- ١٩٣٥م، وألف كتاب مرآة الحرمين ثم محمد لبيب البتنوني الذي حج عام ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م وألف كتاب الرحلة الحجازية.

وربما كان هؤلاء الثلاثة دافع قوي للعديد من رجال الأدب المصريين لخوض الرحلات إلى الأراضي المقدسة والأراضي الإسلامية عامة ومنهم الأديب محمد شفيق مصطفى الذي كانت رحلته مختلفة عن رحلات من سبقوه فلم يردها رحلة حجازية تعتني في الأصل بالأراضي المقدسة وأداء فريضة الحج بل أرادها رحلة إستكشافية تشاهد ما هو جديد عن أحوال بعضهم الشعوب العربية الشقيقة في شبه الجزيرة وشمال نجد.

إتبع الرحالة محمد شفيق في رحلته منهج التوثيق الصحفي الموضوعي حيث شاهد بعينه وكتب بقلمه وإمتازت كتاباته بالإيجاز والدقة وعدم المبالغة ويغلب على الكتابة الاسلوب الصحفي، والذي يؤكد ذلك ما ذكره الدكتور عبد الرحمن الشبيلي «أن بعد ضم الحجاز للأراضي النجدية عام ١٩٢٥م ظهرت عدد من الكتب دون دعم حكومي سعودي من منظور موضوعي توثيقي حرص فيه الكاتب أن يسجل السلبيات والإيجابيات على حد سواء».

ويمكن تقسيم طبيعة هذه المؤلفات إلى أربعة أنواع:

١- نوع تغلب عليه الصبغة الإعلامية البحتة مثل دليل المملكة العربية السعودية لفؤاد شاكر.

٢- نوع تغلب عليه صفة الانطباعيّة الصحفية مثل كتاب في قلب نجد والحجاز.

٣- نوع يتسم بالتوثيق مثل كتاب الذكرى العربية الذهبية لفيلبي.

٤- نوع ذو طبيعة إرشادية مثل الأدلة الخاصة بالحاج[١].

أما أدب الرحلات فقد عرف في القرن التاسع عشر بعد أن كتب أ. يو كراتشكوفسكي كتاب تاريخ الأدب الجغرافي فكانت شهادة ميلاد لعبارة أدب الرحلات حيث كان يطلق عليها قبل ذلك اسم الرحلة فقط[٢].

أما مصطلح الرحالة فيطلق مبالغة على الرجل الذي يخرج من بلد إلى آخر أو أكثر ويصف تلك البلدان من بيئة ومواقع وتجمعات وعادات ونحو ذلك فيقدم خدمات علمية واستخبارية واستكشافية[٣].

ويذكر الدكتور يحي جبر ان هناك ثلاث عوامل أدت إلى تنشيط الرحلة:

١- البحث العلمي لتحديد مواقع وتخطيط، البلدان ومعرفة أحوالها.

---

(١) عبد الرحمن الشبيلي: الرياض العاصمة والبدايات، ص ٩٦، وما بعدها.

(٢) عبد الهادي التازي: أدب الرحلات هل سيختفي من الساحة، دارة الملك عبد العزيز، الرحلات، ج١، ص ١١.

(٣) يحيي عبد الرؤوف جبر: شمال شبه الجزيرة في مصنفات الرحالة، دارة الملك عبد العزيز «الرحلات»، جا، ص ٢٩٠.

٢- الرحلة إلى إقليم للواز والفرار من الخطر «اللجوء السياسي».
٣- السياحة والتدبر والاعتبار وطلباً للمتعة والترفيه.
٤- لتأدية فريضة الحج[١].

ومن هنا يكون الرحّالة محمد شفيق قد نهج نهج الرحالة الأجانب في رصد الظواهر الاجتماعية من عادات وتقاليد وأوضاع سياسية واقتصادية، وذلك لاختلاف نمط الحياة في تلك الأقاليم عن نمط حياة الرحالة محمد شفيق في مصر لذلك فقد استهوته تلك العادات ولفتت أنظاره واهتمامه واتخذ من العامل الأول والثالث من عوامل تنشيط الرحلات حافز له.

كما اهتم في وصف الممالك والمسالك وما يمر به من الوديان والجبال والسهول والمشاهد الطبيعية والأثرية والعمرانية بالإضافة إلى عدد من القضايا المتعددة التي تتصل بالتاريخ والفكر واللغة أيضاً حيث إهتم باللهجة المحلية لأهل نجد والسياسة والدين والمذهب السلفي الذي اتبعه النجديون، كل ذلك وسّع مجال الاستفادة من نص الرحلة حيث كانت الرحلة حقلاً معرفيًّا منفتحاً على مجالات متعددة.

وقد تفردت الرحلة التي بين أيدينا عن باقي الرحلات بأنها لم تكن رحلة حجازية أي لم تكن تعتني أصلاً بأداء فريضة الحج أو زيارة الأماكن المقدسة، كأحد أهداف الرحلة الرئيسية.

ومما سبق نستنتج أن رحلة في قلب نجد والحجاز من أدب الرحلات المصرية الصحفية أي ذات الأسلوب الصحفي التوثيقي الموضوعي ويعتبر محمد شفيق مصطفى من رواد أدب الرحلات الصحفية حيث نهج نهجه عدد من الصحفيين بعد ذلك وعلى رأسهم الصحفي أنيس منصور في رحلته ٢٠٠ يوم حول العالم حيث اتسمت بأدب الرحلات الصحفية.

---

(١) يحي عبد الرؤوف جبر: المرجع السابق، ص ٢٩٢- ٢٩٣.

ويجب الإشارة إلى أن أدب الرحلات صناعة قلت منذ بداية القرن العشرين لانتشار الطائرات والسفن والقطارات والسيارات، فأخذت المطايات في الاختفاء وأصبحت الرحلة قصيرة لا يشاهد الرحالة الكثير عن الأماكن أو الأشخاص التي يمر عليها، وهنا قرر محمد شفيق أن يتخذ ظهور الإبل كوسيلة لعبور الأراضي السعودية من قريات الملح حتى مكة المكرمة وذلك لمشاهدة وملاحظة كل صغيرة وكبيرة عن أهل نجد والحجاز، مما أعطى للرحلة أهمية وثراء معرفي.

أفرد محمد شفيق في رحلته عدد من القضايا المهمة وعلى رأسها شخصية الملك عبد العزيز آل سعود حيث تكلم عن سجاياه وملابسه وسماته الشخصية وحياته اليومية ومعاملته مع أهل بيته وصلته للأرحام ومعاملته مع أعدائه ورجال دولته بل تكلم عن أكله وعن عدله في الحكم ومفهوم العدل والأمن عند الملك وطموحاته السياسية وعن القضايا المعاصرة ووجه الملك الشخصية فيها كحاكم للأراضي المقدسة.

دوافع الرحلة

وإذا جئنا عن الأسباب والدوافع لتلك الرحلة من وجهة نظر المؤلف وما كتبه في صدر رحلته في قلب نجد والحجاز **نجدها كالآتي**:

أ- رغبة ولي العهد الأمير سعود بن عبد العزيز في دعوة المفكرين المصريين لزيارة الأراضي السعودية.

ب- الاهتمام بالبلاد الإسلامية التي تدين بدين الإسلام ولا يعرف جموع المصريين عنها شيء، والإهتمام بالقطر السعودي خاصة بعد دمج نجد مع الأراضي الحجازية (المقدسة) في بلد واحد تحت حكم الملك عبد العزيز.

جـ- سماع المؤلف عن الملك عبد العزيز وأفعاله في تحسين حال نجد والحجاز من الناحية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ما دفعه لزيارة ذلك البلد.

د- ميول الأديب محمد شفيق منذ صغره بعمل رحلة استكشافية على غرار المستطلعين لأحوال الأمم والبلاد من الرحالة القدماء لما يوجد في الرحلة من مغامرة وتشويق ومعرفة.

هـ- محاولة المؤلف تقديم عمل يخدم العلم حيث قال «أني قصدتها لوجه العلم والإطلاع».

و- تزويد المكتبة العربية بعمل لم يكتبه أحد من الرحالة العرب والإفرنج في الطور الحاضر، حيث إعتقد المؤلف أنه لا يوجد كتابات عن أحوال نجد والحجاز في عهد الملك عبد العزيز آل سعود قد تناولت ما تناولته الرحلة من معلومات، فكان ذلك سبب كافي لقيامه بتلك الرحلة حتى يسد ذلك الثغر الموجود خاصة بعد ضم نجد والحجاز في قطر واحد.

الرحلة في عيون السلطة السعودية

لكي نعرف مدي مكانة الرحّالة محمد شفيق عند أصحاب الرأي السعودي في المملكة يكفي أن أذكر بعض من النصوص الواردة بخصوص صاحب رحلتنا لنعرف أهميته عند الملك عبد العزيز آل سعود ورجال الدولة والنص الأول الذي بين يدينا أورده الشيخ عبد الله غازي في كتابه أفادة الأنام بتاريخ بلد الله الحرام عند حديثه حيث قال «قدوم بعض الأمراء والأعيان لأداء فريضة الحج (عنوان) ثم قال قدم مكة لأداء فريضة الحج سنة ١٣٤٨، حضرة الشيخ على بن محمد آل خليفة... والأديب محمد شفيق مصطفى صاحب جريدة الرياض المصرية.

ومن المعروف أن الشيخ عبد الله غازي قد ذكر أصحاب الشأن فقط من القادمين لأداء فريضة الحج أو من لهم مكانة إسلامية أو عربية أو مكانة عند الملك عبد العزيز كما جرت العادة[١].

أما النص الثاني فقد أورده رحالة مغربي عام ١٣٥٣هـ، في رحلته أثناء زيارته الملك عبد العزيز حيث دعي جلالته يوم الثلاثاء ١٤ذي الحجة رجال الصحافة والإعلام العرب والمسلمين في مكة لتكريمهم وكان من بينهم الصحفي الأديب محمد شفيق مصطفى صاحب جريدة الرياض المصرية[٢].

من خلال النصين نلاحظ المكانة المرموقة التي احتلها محمد شفيق في عيون الملك عبد العزيز ورجال الحكم السعودي.

---

(١) عبد الله غازي: إفادة الأنام بتاريخ بلد الله الحرام، ١٣٤٨هـ، ص ٤٠١.

(٢) عبد الكريم كريم: صورة الملك عبد العزيز آل سعود من خلال بعض الرحلات، دارة الملك عبد العزيز (الرحلات)، جـ٢، ص ٥٠٣.

المنهج في تحقيق الرحلة

قمت بجمع الرحلة من المقالات المنشورة بالصحف والكتب المنشورة وكتبتها بعد مقارنة النصوص ثم حاولت جاهداً مقارنة أقوال محمد شفيق بأقوال معاصرية الذين شاهدوا مثله البلدان والشخصيات التي جاءت في الرحلة، أما بخصوص النصوص المختصرة التي ذكرها محمد شفيق عن بعض القضايا، أوردت لها تعليقات ذات قيمة كبيرة تغطي القصور الذي تركه صاحب الرحلة حتى يتسنى للقارئ الإلمام بكافة المعلومات سواء كانت تاريخية أو جغرافية أو دينية أو إقتصادية أو إجتماعية.

كما إستعنت بالدراسات الحديثة المعنية ببعض المواضيع المهمة، التي ذكرها الرحالة مثل التعليم في نجد على سبيل المثال وليس الحصر، فوجدت من الضروري الاستشهاد بتلك الأبحاث حتى تكون الحقيقة كلها واضحة لدي القارئ وفي بعض الأحيان أوضحنا من خلال التعليقات وجهات نظر مخالفة لوجهة نظر الرحالة وذلك لعرض الحقيقة كاملة أمام القارئ حتى لا يستقي المعلومة الموجودة في الرحلة على أنها من المسلمات.

وقمت بالاستعانة بكمية كبيرة من الصور الأثرية والشخصية والجغرافية عن الأماكن والشخصيات المذكورة في الرحلة حتى يستطيع القارئ مشاهدة تلك الأماكن والشخصيات كأنه رافق الرحالة أثناء رحلته وحاولت جاهداً أن تكون تلك الصورة معاصرة لفترة الرحلة قدر الأماكن وقد إستعنت بتلك الصور من المجلات العلمية مثل مجلة الدارة الصادرة عن دارة الملك عبد العزيز وكتب الآثار.

وأثناء تحقيقي للرحلة وجدت بعض الأخطاء في ذكر بعض القرى أخطأ الرحالة في كتابتها دون عمد مثل موضع خطوطه الذي ذكره على أنه

مكان قوم لوط والصحيح هو حضوضى بفتح الحاء والضاد المعجمة وهي سبخة مستطيلة عرضها ٦ كيلومتر وبالفعل كان يحاك حولها عدد من الأساطير والروايات الخيالية وهي عبارة عن سبخة ذات قشرة يابسة رقيقة تحتها طين ناعم لزج غير قابل للتماسك مشبع بالرطوبة، وإسم حضوضى مشتق من الحضيض وهو المكان المنخفض أو لهيب النار[١].

وقد استعنت في تلك التصحيحات بالكتب المختصة بالجغرافيا وبالعديد من الرحلات التي جابت شمال الجزيرة ومنطقة نجد من أجل الإلمام بالمعلومات ومحاولة المقارنة بين أقوال الرحالة محمد شفيق وأقوال الرحالة الآخرين حتى عن الشخصيات والأماكن والعمارة مثل حديثهم عن الملك عبد العزيز وشخصيته وحديثهم عن قصر المصمك بالرياض، والأمثلة عن ذلك تطول.

وأخيراً يجب أن يعرف القارئ أن الممول لتلك الرحلة كانت جريدة السياسية التي كان يعمل بها محمد شفيق مصطفى كمندوب صحفي وجاءت في فترة من أهم الفترات التاريخية في تأسيس المملكة لأن منطقة الحجاز كانت قد انضمت للأراضي النجدية وحكم الملك عبد العزيز آل سعود عام ١٩٢٥م، والرحلة كانت عام ١٩٢٦ وأثناء وجود الرحّالة في الرياض قام الملك عبد العزيز بإعلان المملكة بدلاً عن السلطنة حيث كان يطلق على الأراضي السعودية سلطنة نجد والحجاز، وأجرى الرحّالة محمد شفيق مصطفى أول حديث ملكي معلن مع الملك عبد العزيز بعد إعلان الملكية وبذلك حقق سبق صحفي كبير في مجال الإعلام لمشاهدته تلك الأحداث التاريخية الهامة.

وفي النهاية أرجو من القارئ أن يجد من المعلومات ما يستحق عناء

---

(١) حمد الجاسر: في شمال غرب الجزيرة، ص ٥١٩- ٥٢٢.

القراءة في تلك الرحلة ولا أخفي عنكم قصور أو نسيان أو جهل. لكن الكمال لله وحده وعزائي أني حاولت جاهداً أعداد تلك الرحلة على الوجه الحسن.

والله من وراء القصد وهو يهدي السبيل.

محمد محمود خليل

بداية الرحلة

لست أنكر أنني كنت إلى ما قبل زيارة حضرة صاحب السمو الملكي الأمير سعود ولي عهد نجد والحجاز[١] لمصر في صيف العام الماضي[٢] أجهل كل شيء عن أحوال البلاد العربية التي ندين وأياها بدين الإسلام

---

(١) ولد الأمير سعود بمدينة الكويت في الرابع من شهر شوال عام ١٩٠٢، وهي السنة التي إسترد فيها والده الملك عبد العزيز مدينة الرياض، وإنتقل سعود مع افراد الأسرة من الكويت إلى الرياض حيث تلقي هناك مبادئ القراءة والكتابة والعلوم الدينية على يد علماء نجد، ونشأ في مدرسة والده المُلك عبد العزيز ولما كبر وشب أخذ يشارك والده في أعمال السياسة والحروب مثل حروب حائل واليمن، ثم تم مبايعته بولاية العهد في ١١ مايو ١٩٣٣م، ثم تولى المُلك بعد وفاة والده سنة في ٩ نوفمبر ١٩٥٣، وقد أصيب الملك سعود في أواخر عهده بالمرض واضطر للسفر عدة مرات للعلاج فقرر التخلي عن حكم البلاد لأخيه الأمير فيصل وذلك في ٢٩ أبريل ١٩٦٤، ثم توفي الملك سعود في أثينا باليونان سنة ١٩٦٩ ونقل جثمانه إلى الرياض ودفن في مقبرة العود، راجع المملكة العربية السعودية في مئة عام، ص٦٥- ٦٧.

(٢) يقصد صاحب الرحلة بذلك التاريخ صيف ١٣٤٥هـ الموافق ١٩٢٦م حيث زار الأمير سعود كبار رجال الدولة المصرية وكان مقر إقامة الأمير سعود في المنيرة وهي حي بمدينة القاهرة وذلك بسبب إزالة سوء التفاهم الذي حدث في منى بالأراضي المقدسة في موسم الحج مع المحمل المصري وكان من كبار مستقبلي الأمير سعود رئيس مجلس النواب سعد باشا زغلول وذلك يوم ٢١ أغسطس عام ١٩٢٦م.

الحنيف اللهم الا القدر الذي يعرفه سواد المتعلمين من أبناء مصر وغير أبنائها من الناحيتين التاريخية والجغرافية، وحسبي أنه لم يكتب واحد من الرحّالة العرب والافرنج في الطور الحاضر شيئاً يعتد به عنها بعد ذلك التطور السياسي الذي غير كل شيء على وجه الأرض بعد الحرب العالمية الكبري وبخاصة عقب توحيد - نجد والحجاز- في حكم واحد وتحت سلطان ملك واحد هو عبد العزيز آل سعود[1]، وإذا قلت هذا في شأن نجد والحجاز وحدهما دون الجزء المتمم لشبه الجزيزة العربية وأعني

---

(١) حول الملك عبد العزيز آل سعود، راجع على بن شايخ البكري الشهري: تأثير شخصية القائد وبناء المعنويات في جيش التوحيد بقيادة الملك عبد العزيز، الرياض الطبعة الأولى ٢٠٠٢م، ص ٢٣- ٣١. **حيث قال عن الملك عبد العزيز ملامح من حياته وأعماله:**

١- **المولد والنشأة:** ولد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل آل سعود في الرياض عام ١٢٩٣هـ الموافق ١٨٧٦م على الأرجح، وفي النصف الأخير من رمضان عام ١٣٠٩هـ الموافق ١٨٩١م خرج عبد العزيز آل سعود من الرياض مع والده وأسرته بسبب سوء الأحوال والفوضى التي عمت نجد بعد إستيلاء محمد بن عبدالله بن رشيد على الحكم فيها، وقد تنقل عبد العزيز مع والده وأسرته في الصحراء بين فئات بادية العجمان وآل مرة حتى وصلوا إلى الكويت عام ١٣١٠هـ الموافق ١٨٩٢م، وقد أتاح له هذا التنقل وهذه الحياة في الصحراء فرصة ممارسة حياة الصحراء والتعود عليها وإثراء تجربته القيادية. وتمضي تسعة أعوام وعبد العزيز في الكويت في كنف والده الإمام عبد الرحمن بن فيصل آل سعود، وهو يسمع ويشاهد الصراع الدولي في مياه الخليج العربي الذي يعكس أطماع الدول الكبري وتنافسها، وفي قلب الجزيرة العربية، إشتد نفوذ ابن رشيد والذي يشارك في الصراع إلى جانب الدولة العثمانية، ولكن عبد العزيز كان يستفيد مما يسمع ويشاهد، فكان يتعلم ويتدرب ويعد نفسه لعمل كبير ينتظره في أى فرصة تسنح له، وكان يرافق والده في مجالسه وفي مجلس أمير الكويت الشيخ مبارك، ويستفيد مما يسمع من المحاورات والمناورات عن الصراع الدولي في المنطقة.

موقعة الصريف: كان الأمير عبد العزيز بن عبد الرحمن ينتظر الفرصة للقيام بعمل =

به اليمن فانما قد قيض لأهل الاطلاع وعشاق التعرف بأحوال الأمم من قام بارتياد هذا القطر من أبناء مصر في السنوات الأخيرة ونشر ما كان مجهولاً عنه.

= يعيد ملك الآباء والأجداد، وقد لاحت له الفرصة عام ١٣١٨هـ الموافق ١٩٠١م عندما كثرت إعتداءات ابن رشيد على الكويت، فقرر أمير الكويت أن يهاجم ابن رشيد في بلاده، وكان عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود يحاول أن يستفيد من هذه الظروف فاستأذن عبد العزيز أمير الكويت الشيخ مبارك آل الصباح في القيام بمغامرة خاصة يندفع بها إلى الرياض لإشغال ابن رشيد، وتشتيت قواه للقتال في مكانين مختلفين فإذن له، فخرج الجميع بجيش كبير بإتجاه نجد لمحاربة ابن رشيد الخصم المشترك، وعندما وصلوا إلى الشوكي- الذي يبعد عن الرياض (١٦٠) كيلومتراً شمالاً، إنطلق عبد العزيز بفرقة من ذلك الجيش نحو الرياض فوصلها بعد يومين، وقد تصدت له حامية ابن رشيد في الرياض فقاتلها حتى لجأت إلى قصر المصمك فحاصرها لمدة أربعين يوماً.

ومما سهل هذا الدخول هو هدم ابن رشيد أكثر أسوار الرياض، وقد عزم عبد العزيز على حفر نفق إلى داخل قصر المصمك، وفي هذه الأثناء وصلت الأخبار إلى عبد العزيز بنتائج وقعة «الصريف» بالقرب من الطرفية في القصيم يوم ١٣١٨/١١/١٧هـ الموافق ١٩٠١/٣/٧م عندما إنهزم ابن صباح وفاز ابن رشيد، مما إضطر عبد العزيز إلى فك الحصار والعودة سريعاً إلى الكويت، وكان من نتائج هذه الموقعة بالنسبة لعبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود هو العمل مستقبلاً على تلافي الأخطاء التي حصلت في هذه الجولة كما كان من نتائج موقعة الصريف ما يلي:

- درس عبد العزيز طرق السير، وكيفية أسلوب الدفاع عن الرياض خصوصاً بعد هدم ابن رشيد أكثر أسوارها.
- شحذت هذه المغامرة عزيمته وزادت من إندفاعه لتحقيق هدفه.
- لم تفت في عضد عبد العزيز هذه النتيجة بل زادت من تصميمه وعزمه على القيام بمغامرة أخرى لإستعادة الرياض.
- اتصل عبد العزيز بالقبائل الموالية لآل سعود وأذكى فيها الحماس لمقاومة حكم ابن رشيد.
- نقل ابن رشيد عامله على الرياض عبد الرحمن بن ضبعان إلى بريدة، وولي مكانه =

فقد قام حضرة صاحب السعادة العالم المحقق أحمد زكي باشا برحلة في العام الماضي فقص علينا ما شهده من أحوال اليمن على صفحات الأهرام الغراء مما لم يتعرض له أحد قبله من حيث الافاضة في

= عجلان بن محمد، وإشتد ابن رشيد في تعامله مع من وقفوا مع خصومه مما زاد من سخطهم عليه وتطلعهم إلى التخلص من حكمه.

إستعادة الرياض: بعد أقل من عام على معركة الصريف، إنطلق عبد العزيز من الكويت بعد أن إستأذن والده، ووافق الشيخ مبارك الصباح على تزويده بعدد (٣٠) بندقية و (٤٠) ذلولاً وعدد (٢٠٠) ريالاً، كانت النواة الأولى لهذه الحملة، وبلغ عدد الذين رافقوا عبد العزيز من الكويت والذين إنضموا إليه خلال تحركاته في الصحراء عدد (٦٣) رجلاً، ومعظمهم من الذين رافقوا والده عندما غادر الرياض منذ عشر سنوات، وبعد أن نام من في الكويت، وبتكتم شديد غادر عبد العزيز الكويت في أوائل شهر شعبان ١٣١٩هـ الموافق ١٩٠١م، وسلك طرقاً غير مألوفة وتظاهر بالرغبة في الغزو، فالتف حوله (١٠٠٠) راكب ذلول، و (٤٠٠) خيال من طلال الكسب، وهم من قبائل العجمان والسهول وسبيع وآل مرة، وإجتاز بهم الصمان والدهناء وأغار على أبيات لقحطان من أعوان ابن رشيد فغنم وعاد إلى أطراف الأحساء فتمون، وقصد جماعة من قحطان وآخرين في عشيرة من جهات سدير فربح، وهاجم فريقاً من مطير فساق بعض مواشيهم، وسمع البدو بخبر الغزو فسارعوا يتبعون الظافر على عادتهم وأقبل فصل الشتاء وذابت قوة ابن سعود مرة ثانية في الصحراء، وجاءت رسالة إلى عبد العزيز من والده وهو في واحة «يبرين» يشرح له الموقف ويطلب منه العودة إلى الكويت، وفي الحال تفقد عبد العزيز رجاله الذين صحبوه من الكويت أو إنضموا إليه في الطريق وقرأ عليهم الرسالة ثم قال: لا أزيدكم بما فيه، وهذا كتاب والدي يدعونا فيه للعودة إلى الكويت، فمن أراد الراحة ولقاء أهله والشبع والنوم فإلى يساري «وتواثب الثلاثة والستون إلى يمينه، واستلوا سيوفهم مقسمين على أن يصحبوه إلى النهاية» وهنا بلغ عبد العزيز رسول والده وكان حاضراً يشاهد ما حدث بقوله: «سلم على الإمام وخبره بما رأيت، وأسأله الدعاء لنا، وقل له موعدنا إن شاء الله في الرياض» وفي ٢١ من رمضان عام ١٣١٩هـ شد الرحال بمن معه في واحة «يبرين» بإتجاه الرياض وعددهم (٦٣) رجلاً، وكانوا يسيرون ليلاً ويكمنون نهاراً حتى وصلوا إلى مورد «أبو جفان» =

سائر نواحي تلك البلاد الاجتماعية والسياسية، ولعل النهضة العربية التي شملت كل شبه جزيزة العرب واشتراك مصر بل قيامها بقسط غير قليل بجمع كلمة المسلمين سواء أكان باهتمامها الدائم بشؤون الأراضي

= يوم عيد الفطر، ثم ساروا منه في الثالث من شوال بإتجاه الرياض حتى وصلوا إلى ضلع الشقيب، في الرابع من شوال ١٣١٩هـ الموافق ١٣ يناير ١٩٠٢م، وفي ليلة الخامس من شوال قام القائد بتقسيم قواته إلى ثلاثة مجموعات وهي كما يلي:

أ- **مجموعة الأسناد الإداري** وعددهم (٢٣) رجلاً بقيادة معضد بن خرصان الشمري لحراسة الركائب والمؤن ولحماية ظهور المهاجمين وليكونوا مدداً وعوناً عند الحاجة، وكانت تعليمات القائد بعدم الحركة بإتجاه الرياض إلا بأمر من القائد، وإذا أصبح الصباح ولم يأتهم خبر فعليهم العودة إلى الكويت طلباً للنجاة.

ب- **القوة الرئيسية المهاجمة**: وعددهم ثلاثة وثلاثون رجلاً بما فيهم قائدهم أخ الملك عبد العزيز الأمير محمد بن عبد الرحمن آل سعود، وكانت أوامر القائد عبد العزيز تقضي ببقائهم في بستان قرب بوابة الظهيرة خارج سور الرياض، وأمرهم بعدم الحركة حتى يصدر لهم الأمر بذلك، وإذا لم تصل إليهم إشارة بالتقدم قبل الصباح فعليهم المغادرة طلباً للنجاة.

ج- **مجموعة القائد (السبور؛ مجموعة الاستطلاع)**: وعددهم سبعة رجال بما فيهم قائدهم عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود، وقد ساروا بإتجاه حصن المصمك مشياً على الأقدام حتى وصلوا الرياض ودخلوا أحد البيوت القريبة منه، فتسوروا جدرانه ليلة الخامس من شوال ١٣١٩هـ، حتى دخلوا قصر المصمك وإستقروا في داخله، وعلموا أن عجلان بن محمد عامل ابن رشيد على الرياض ينام في حصن المصمك مع الحرس، ولا يخرج منه إلا بعد طلوع الشمس، عند ذلك أرسل القائد عبد العزيز كلًّا من الأميرين عبد العزيز وفهد ابني جلوي بن تركي آل سعود إلى أخيه الأمير محمد بن عبد الرحمن ومن معه وعددهم (٣٣) رجلاً (القوة الرئيسة المهاجمة) يأمرهم بالإلتحاق به، وقد وصلوا قبل الفجر ودخلوا قصر المصمك بنفس الطريقة التي دخل بها القائد عبد العزيز ومجموعته بدون أن يعلم بهم أحد وعندما استقروا جميعاً داخل قصر المصمك تم الاتفاق على خطة الهجوم وتمت الترتيبات النهائية للعملية، وعرف كل من هؤلاء الرجال (٦٣) موقعه ومهمته وماذا يجب أن يقوم به، وفي صباح الخامس من شوال ١٣١٩هـ الموافق ١٤/١/١٩٠٢م =

المقدسة والخلافة الإسلامية أم بنشر معالم الثقافة العربية واعلاء شأنها هو الذي حرك همم المفكرين والباحثين لاستجلاء حقائق الحال في تلك البلاد والعمل على تقريب قلوب الشعوب الإسلامية نحو جاراتها وتوطيد علائق

= دارت معركة سريعة ومفاجئة كان من نتائجها قتل عجلان بن محمد عامل ابن رشيد على الرياض، وبعض من معه وتم إستسلام الباقين، وقد جاء مصرع عجلان قاضياً على معنويات جنود الحاملة فإستسلموا سريعاً وعلى سطح المصمك وأمام أبراجه نادي المنادي، بقوله: «المُلك لله ثم لعبد العزيز آل سعود» وحالاً تمت المباشرة ببناء الأجزاء المهدمة من السور القديم حول الرياض في نحو خمسة أسابيع، ومن هنا بدأت معركة «التوحيد والبناء» للكيان الكبير «المملكة العربية السعودية» حسب التسلسل التالي:

١٣١٩هـ/ ١٩٠٢م إسترداد الرياض.

١٣٢٠هـ / ١٩٠٢م معركة الدلم.

١٣٢٢هـ/ ١٤٠٩م معركة البكيرية

١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م معركة الشنانة

١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م معركة روضة مهنا

١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م معركة الطرفية

١٣٣١هـ/ ١٩١٣م معركة توحيد الأحساء والقطيف

١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م معركة جراب

١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م معركة كنزان.

١٣٣٧هـ/ ١٩١٩م معركة تربة.

(سنتي) ١٣٣٨هـ- ١٣٤١هـ/ ١٩٢٠م- ١٩٢٣م معارك توحيد عسير وتثبيت الحكم فيها.

١٣٤٠هـ/ ١٩٢١معارك توحيد جبل شمر.

(سنتي) ١٣٤٣هـ- ١٣٤٤م/ ١٩٢٤هـ- ١٩٢٥م معارك توحيد الحجاز.

(سنتي) ١٣٤٧هـ- ١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م- ١٩٣٠م المعارك مع المنشقين من الإخوان، وإنهاء التمرد والقضاء على تلك الفتنة.

(١٣٤٨هـ/ ١٩٢٩م إنشاء إدارة الأمور العسكرية للإشراف على تكوين الجيش العربي السعودي. =



سعد باشا زغلول يزور الأمير سعود بن عبد العزيز في مقر إقامته في القاهرة

الود والصفاء بينها، وان أنس لا أنسي ما أبداه سمو الأمير سعود اثناء زيارته مصر من هذه الرغبة السامية ودعوته المفكرين لزيارة بلاده واستطلاع شؤونها ونشر الحقائق المجردة عنها للناطقين بالضاد ممن لا يزالون يجهلون عنها كل شيء.

= ١٣٤٩هـ/ ١٩٢٩م ضم جازان وتهامة عسير إلى الدولة السعودية.

١٣٥١هـ/ ١٩٣٢م إعلان إسم المملكة العربية السعودية، بدلاً من مملكة لاحجاز ونجد وملحقاتها.

١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م معاهدة الطائف بين المملكة واليمن لتعيين الحدود، كما عقدت إتفاقية مع شركة «إستاندرد أويل أوف كلفورنيا» منحت بمقتضاها حق التنقيب عن البترول.

١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م إنشاء رئاسة الأركان للجيش العربي السعودي.

١٣٦٣هـ/ ١٩٤٣م إنشاء وزارة الدفاع.

١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م إنضمام المملكة للجامعة العربية ومنظمة الأمم المتحدة.

١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م مشاركة المملكة في حرب فلسطين بقوة عسكرية.

١٣٧٣/٣/٢هـ/ ١٩٥٣/١١/٩م إنتقل الملك عبد العزيز إلى جوار ربه عن عمر يناهز (٨٠عاماً) وكانت وفاته بالطائف حيث صلي عليه الأهالي بالمسجد الجامع في =

من أجل ذلك، ولأني منذ نعومة أظفاري أشعر بميل خاص إلى احتذاء أثر المستطلعين لأحوال الأمم والبلاد، وكنت ولا أزال ممن يؤمنون بالتطور في كل شيء، حتى أني كنت أرقب عن كثب خلال زيارة الأمير النجدي وحاشيته الكثيرة العدد لمصر وما تحدثه هذه الزيارة العظيمة التحضر في نفوسهم من الأثر والتطور النسبي في حركاتهم وسكناتهم ومقدار قابليتهم واستعدادهم للأخذ بأسباب الحضارة الحساسة، سواء أكان في اجتماعاتهم بزائريهم من المصريين والأجانب، أو معاملاتهم الخاصة، وفي خلال مشاهداتهم لعظمة الحضارة المصرية وأسباب العمران الاجتماعي، وما اقتناه سمو أميرهم من نفائس المصنوعات وبدائع الأشياء وتقديره لكل ما كان يقع تحت ناظريه مما كان يعد في نظره جديداً غريباً، فإذا أضفت إلى ما تقدم ما كان ينقله إلى سمعي الرواة عن أفعال الملك عبد العزيز سواء في تدبير شؤون بلاده من الوجهتين الاجتماعية والسياسية والأحاديث التي كانت تنشرها الصحف لجلالته مما يدل على سعة اطلاعه وحدة ذهنه وبعد نظره في جلائل الشؤون واتفاق قلوب رعاياه على حبه واجلاله مع بقاء أكثرهم على بداوتهم وشدة تمسكهم بالعمليات دون النظريات.

كان كل ما تقدم من الأسباب المباشرة التي دفعتني للقيام بهذه الرحلة الشاقة الطويلة حسبي أنني قصدتها لوجه العلم والاطلاع فقد سلكت طريقاً لم يطرقها سواي حتى الآن من الأجانب عن تلك البلاد

= الحوية، ثم نقل جثمانه بالطائرة إلى الرياض حيث ووري التراب في مقابر العود (رحمه الله).

وبعد فإن سيرة هذا الرجل الذي أسس هذه المملكة وهذا الكيان الكبير وهذه الدولة يستحق منا الدعاء له بالجنة على ما قام به وأن نترسم خطاه ونأخذ من سيرته نبراساً نسير عليه، وقد أفاض في مدحه بحق القريب والبعيد والصديق والعدو، رحمه الله رحمة واسعة وجعل الجنة مثواه.



ولي العهد (الأمير سعود) مع عمّه وابن عمّه

فتم لي ما أردته من حيث الاستطلاع الصحيح وإصابة الهدف المقصود. وإني لمدين بشيء كثير من الفضل في نجاح هذه الرحلة إلى تلك الخلال العربية الكريمة التي أبداها لي زعماء قبائل نجد عن طيبة خاطر وإلى استتباب الأمن في تلك الربوع، وأخيراً بل وأولاً وآخراً إلى رعاية الملك عبد العزيز التي شملني قبل أن يعلم بأمر رحلتي، حتى بلغت «الرياض» أثر عودته إليها من الحجاز.

دفعني الميل لاستطلاع أحوال شبه جزيرة العرب بعد ذلك التطور الذي شمل هذه البلاد من أدنى أطرافها إلى أقصاها إلى القيام برحلة طويلة شاقة بدأتها بالسفر من القاهرة إلى فلسطين ومنها إلى نجد فالأراضي الحجازية مخترقا قلب الصحراء على ظهور الابل. ولا بد لي قبل أن أصل إلى وصف أو بلدة وصلت إليها في أرض نجد وهي «قريات الملح»[١] يجمل بي أن أصف للقراء كيف وصلت وكيف شددت الرحال

(١) تقع قريات الملح في وادي السرحان شمال الجزيرة العربية وآخر حدود الجزيرة العربية السعودية شمالاً على طول إمتداد الحدود السعودية والأردن ولهذا تسمي إمارتها بمفتشية الحدود الغربية الشمالية وإمارة القريات هي عاصمة وادي السرحان، محمود ضاري القشامي: شمال الحجاز، ص ٢٦٣.

وهو وصف يثير في النفس ذكريات تاريخية من سير أهل يعرب وملوك البوادي.

لم يكن لي عهد بركوب متون الصحراء ولا أعرف شيئاً عن وسائل الانتقال والمعيشة في تلك القفار. وقد بدأت الرحلة في الصحراء بأن استأجرت سيارة قامت بي من عمان عاصمة شرق الأردن قطعت في قلب الصحراء زهاء أربعمائة كيلومتر قضت في قطعها يوماً كاملاً لم أشهد في الطريق أثناءه سوى أرض قاحلة لا زرع فيها ولا ضرع اللهم إلّا قوافل من الإبل تسير من هنا وهناك[1]، وقد قص على سائق السيارة أن هذه الطريق كانت قبل الآن من أخطر الطرق على السابلة ولكن الخفارة الجوية المستمرة قطعت دابر اللصوص وقطاع الطرق اللهم إلّا ما تأتيه بعض القبائل كقبيلة الحويطات[2] من الغزوات وأعمال السلب والنهب.

---

(١) الطريق من عمان إلى قريات الملح هو عمان، الموقر، سحاب، وادي الجناب- وادي مديسيسات- وادي الشومري- شعيب الخروق- الحديثة، القريات والمسافة تقريباً ١٦١ كليومتر. انظر: حمود بن ضاري: شمال الحجاز ص ٢٦٤.

(٢) **الحويطات**: قبيلة كبيرة منازلها بين تيماء جنوباً والكرك شمالاً ووادي السرحان والنفود الكبير شرقاً وساحل خليج العقبة، وشبه جزيرة سينا غرباً، وتنقسم إلى ثلاث أقسام حويطات التهمة وحويطات العلويون وحويطات ابن جازي، وتنقسم الحويطات إلى عدة بطون منها العمران والعميرات والمساعيد والزبابين والزماهرة والطقيقات والسليمانيين والجرافين والعبيات والمواسة والمشاهير والفرعان والجواهرة والقبيضات والفحامين والمطالقة والعودات والدراوشة والعطون والنوامرة والمراعية والنعيمات والسميحين والمصبحين والفريجات والركيبات وولد سليمان والدمانية والفتة والهديار والزوايد والزلابية، كما توجد من الحويطات بطون كثيرة في مصر. راجع معجم قبائل العرب، عمر رضا كحالة: جـ١، ص ٣١٨.

في قريات الملح(*)

وما كدت أصل «قريات الملح» وهي أول بلد يدخل في منطقة نفوذ أبن سعود وأبدي رغبتي لبعض زعماء القبائل لزيارة عاصمة نجد حتى أسرع إلى إعداد قافلة مؤلفة من خمسة جمال امتطيت أحدها وكان ركاب الأربعة الأخرى بمثابة خدم خاص، وتصادف أن كانت هناك قافلة كبرى قوامها خمسون جملاً ركابها يحملون شتى أنواع السلع والبضائع آتون بها من أسواق الشام يريدون تصريفها في قلب نجد، وعلمت أن هذه الرحلة تستغرق من «قريات الملح» إلى «الجوف» تسعة أيام[1] ومن «الجوف» إلى «حائل»[2] عشرة أيام ومن هذه إلى «بريدة»[3] ثمانية أيام ومن هذه

(*) نقصد بقريات الملح مجموعة القرى المتقاربة مثل كاف وأثره ومنوة وعين الحواس وتعتبر النبك هي قاعدة هذه القري المتقاربة والتي يطلق عليها مجتمعة إسم قريات الملح راجع حمود بن ضاري: شمال الحجاز، ص ٢٦٤.

(١) هناك طريقين من قريات الملح للجوف أحدهما يبلغ ٥٩٨ك هو القريات- طريف- عرعر- سكاكا- الجوف والطريق الثاني صحراوي مباشر طوله ٣٧٠ك يمر بقرية العيساوية- الأمغر- حضوضي وطبرجل وسمرمد. راجع حمود بن ضاري: المرجع نفسه، ص ٢٦٤- ٢٦٥..

(٢) حائل في اللغة الناقة التي لم تحمل عامها ذاك، ورجل حائل اللون أي أسود متغيراً، وقال الحفصي: حائل موضع باليمامة لبني نمير وبني حمان، وقيل موضع باليمامة =

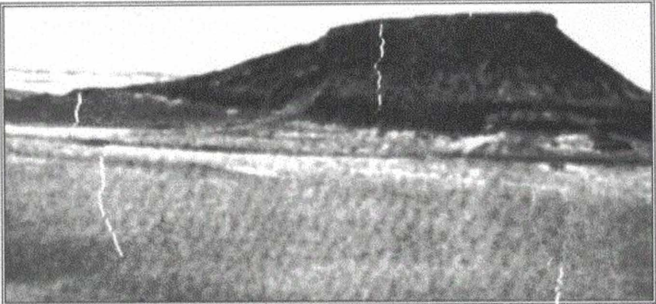


منظر لإحدى حجرات قصر الصعيدي بقرب قريات الملح

الأخيرة إلى «الرياض» عاصمة نجد ثمانية أيام أخرى فتكون مجموع أيام هذه الرحلة في أرض نجد فقط خمسة وثلاثين يوماً، وهي مدة إذا أضيف اليها مايقضيه المسافر للراحة في الطريق بما لا يقل عن خمسة وعشرين

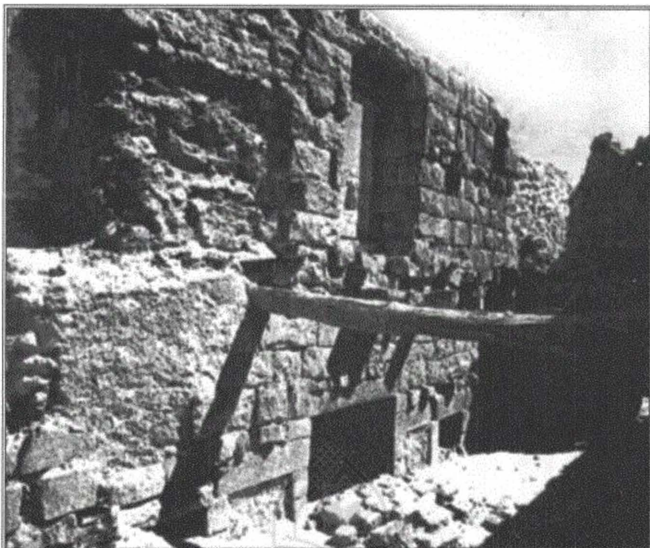
= لبني قشير، وقال أبو زياد بل هو موضع بين أرض اليمامة وبلاد باهله، وقال ابن الكلبي حائل واد في جبلي طئ، راجع ياقوت: معجم البلدان، جـ٢، ص ٢١٠.

(٣) مدينة بريدة: تحتل مدينة بريدة مركزاً وسطاً في التسلسل الحجمي للمدن السعودية فهي واحدة من أهم عشر مدن رئيسية في المملكة العربية السعودية وثاني مدن منطقة نجد بعد العاصمة الرياض، كما تعد العاصمة الإقليمية للقصيم وكان لها دورها التاريخي وثقلها الإقتصادي والسكاني على مستوي المملكة، أما موقعها فتقع بريدية على الحافة اليسري لمجرى وادي الرمة عند تقاطع دائرة العرض ٢٦,٢٠ شمالاً مع خط الطول ٤٣,٥٨ شرقاً على إرتفاع يتراوح بين ٦٠٠- ٦٥٠م عن سطح البحر ويبعد عن أقرب نقطة لمجرى وادي الرمة مسافة ٨كم، انظر: خالد محمد عباس أسكوبي وآخرون: القصيم تراث وحضارة الوكالة المساعدة للآثار والمتاحف، ص١٥-١٦. مكتبة العبيكان الرياض ١٩٩٧م.



واحة الكاف في قريات الملح ويظهر قصر الصعيدي على قمة الجبل،
وإلى يسار الصورة يظهر حصن الرولة

يوماً فتكون جملتها شهرين كاملين يضاف إليها مدة سبعة عشر يوماً من «الرياض» إلى «مكة المكرمة» عدا ماقضيناه هناك لزيارة الحرم الشريف وغيره فيمكن للقارئ قبل المسافر أن يتصور مشاقها على نفسه لا سيما إذا كان حضريًا لم يسبق له في حياته أن أقدم على مثل تلك الرحلة الشاقة وكنت قد استعددت لها فابتعت ثياباً بدوية وساعد طول زمن هذا السفر «لحيتي» فطالت فكان طولها أمراً محتوماً على كل مسلم يدخل أرض نجد، على أن رأسي لم تعدم موسي من هاتيك المواسي النجدية التي كانت عجائزنا في سالف الزمان يقطعن بها «الملوخية» فكنت أحتمل لحيتي المرسلة وثقلها وغضاضة تلك الموسي مغتبطاً رجاء وصولي إلى قلب الصحراء، ولولا بقية صبر في نفسي ما استطعت أن احتمل انعدام وسائل النظافة ووقاية الجسم من أذى الحشرات اللاذعة، فالصابون لا يجده الإنسان في تلك البلاد إلا بصعوبة زائدة وبسعر مرتفع جدًا، وقلما يخلع أحدهم ثيابه ألا وهي أطمار بالية وأسمال لم تمسها الماء، وأكثر سكان البادية لايغسلون أيديهم حتى بعد تناول طعامهم «فصابون العرب لحاهم» كما يقولون هناك.

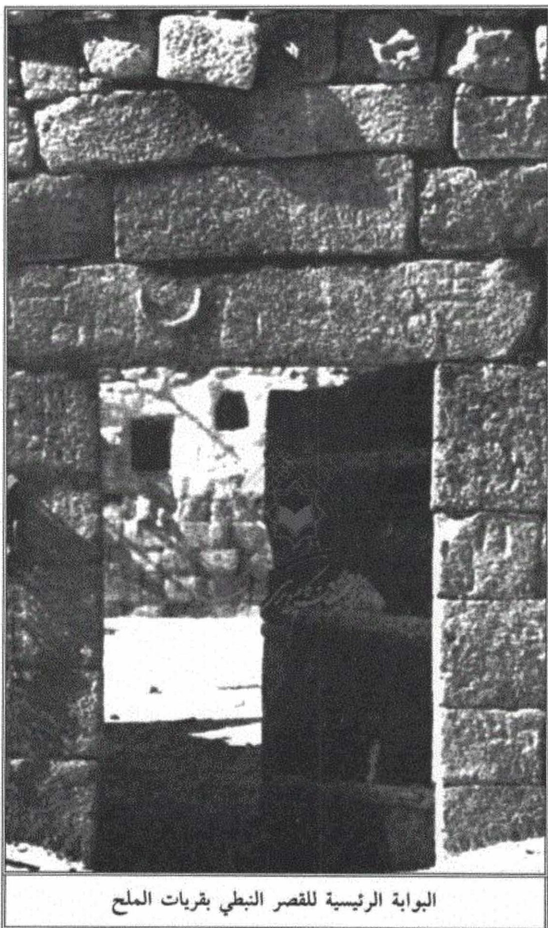


مداخل قصر النبطي بقريات الملح

وقريات «الملح» التي بدأنا السير منها على ظهور الإبل قرية صغيرة على الحدود الفاصلة بين نجد وامارة شرق الأردن وعلى مسيرة يوم ونصف يوم من حدود سوريا من ناحية جبل الدروز، يحكمها أمير نجدي طبقاً لأحكام الشرع الإسلامي وعدد سكانها لا يزيدون عن ستمائة ويعيشون من زراعة القمح وتمر النخل وتربية الابل والماشية واستخراج الملح الذي يجففونه في أحواض ويبيعونه للرحالة في قلب البادية[1]،

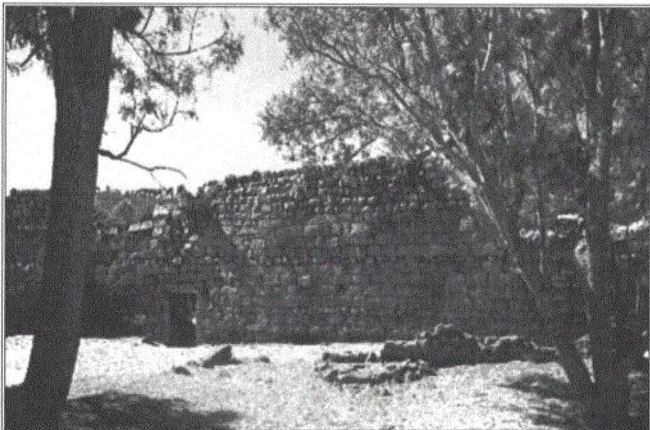
---

(١) تتوفر المياه الجوفية بالقريات وتزرع أنواع الخضرة والفواكه وسكان القريات في الماضي كانوا يعتمدون على تجارة الملح المتوفر في تلك المنطقة بكثرة فيصدّرونه إلى الشام والأردن وبعض مدن شمال الحجاز، لكن يوجد بقريات الملح قلة من =



البوابة الرئيسية للقصر النبطي بقريات الملح

= اليد العاملة في الزراعة بسبب تفضيل أهلها الوظائف الحكومية. راجع حمود بن ضاري: شمال الحجاز، ص ٦٤، ٢٦٧- ٢٦٨.

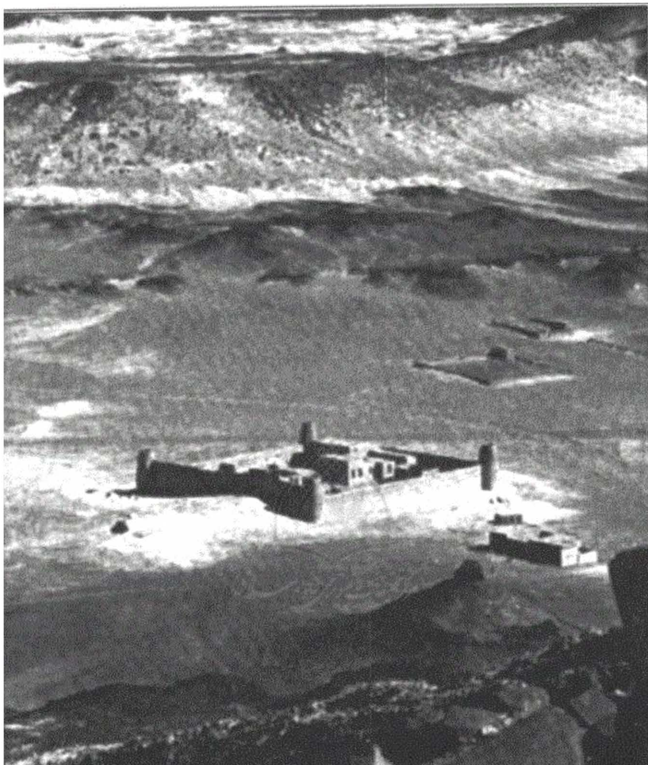


المدخل الرئيسي للقصر النبطي ذو الطابقين ويعود إلى القرن الأول قبل الميلاد

والضرائب هناك يسمونها الزكاة فهي تحصل تارة نقداً بحساب سبعة مجيديات على كل ستة ابل وعن كل عشر ناقات مائة وأحد عشر قرشاً مصريًّا، ورأسان من الغنم من كل مائة رأس، والسرقة والفاحشة معدومتان قطعاً في تلك البلاد، ويلقبون الحاكم بالأمير. وقد استقبلني أمير قريات الملح على «مصطبة» كان يجلس عليها بجانبه سيفه وحوله عدد من أخصائه وبعد أن قدمت لنا القهوة النجدية طلب إليَّ أن أظل في ضيافته أياماً، ولكني اعتذرت لرغبتي بمواصلة السفر، وبعد أن قضيت يوماً دعاني لزيارة قبيلة «بني صخر» في معيته وهي قبيلة تضرب في خيام من الشعر على مسافة خمسة عشر كيلومتراً من قريات الملح معروفة بشدة البأس وبكثرة الغزوات[1]، وسنأتي على ما يستحق البيان عن هذه القبيلة فيما يلي.

---

(١) معظم سكان القريات في الوقت الحاضر هم من الشرارات ويختلطون مع الحويطات =



قلعة الرولة التاريخية بالكاف بالقرب من قريات الملح

= ومع بني عطية ومن الشرارات نجد العزام والفليحان والضباعين ويرجع أصل الشرارات إلى قبيلة بني كلب القحطانية كما يوجد في قريات بعض قبائل الرولة وعنزة. راجع حمود بن ضاري: المرجع نفسه، ص ٢٧٠.

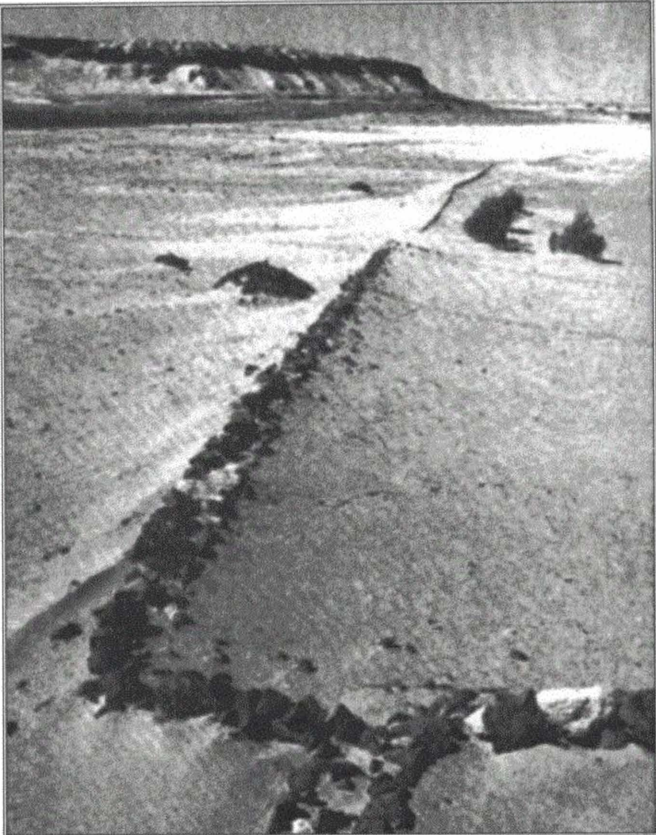
وقبل أن نبرح قريات الملح شاهدنا آثار قصر يسمونه «قصر الصعيدي»[1] لا نسبة إلى صعيد مصر ولكن لأنه شيد على هضبة رملية ذات صخور سوداء كبيرة يحيط به سور منها فإذا بلغ رأس هذه الهضبة انكشف أمامه باب من الخشب يؤدي إلى داخله فيرى آثار مقصورات متعددة، وقد اختلف الرواة في تاريخ تشييد هذا القصر فمن قائل ان قبيلة بني صخر التي يعدونها مصرية الأصل وبني عمومتهم من الدروز قام منها أخوان وسكنا هذه الجهات فبنيا هذا القصر ولكنهما اختلفا بعد ذلك فنزح إحدهما إلى جبل الدروز فأصبح منهم درزيًّا وبقي الآخر في هذا القصر إلى أن مات فاستولى عليه أمراء هذه البلاد وسكنوه مدة طويلة إلى أن عفت آثاره فتهدمت اركانه وأصبحت اطلالاً ولم يبق منها إلّا الاسم.

و«**الجوف**» على مسيرة تسعة أيام على ظهور الابل، ومما يستحق الذكر أن هذه الطريق على طولها لم يصادفنا فيها سوي ثلاث آبار أخذنا منها حاجتنا من الماء. وكان عجبي عظيماً لتلك الابل التي لم تطفئ ظمأها خلال هذه التسعة الأيام إلّا مرة واحدة. على أن رجال القافلة أبلغوني أنها تستطيع أن تظل بلا ماء في فصل الشتاء أكثر من خمسة عشر يوماً. ومن ألطف ما لاحظته في رفاقي أنهم أثناء أداء الصلاة كانوا يراعون واجب المجاملة باعتباري مصريًّا فيبتهلون إلى الله بالدعاء لمصر وأهلها وجلالة مليكها المعظم، فكانت هذه المجاملة في ذاتها تسري عني وعثاء السفر وتقرب القوم إلى قلبي كثيراً وتشعرني بعظمة الرابطة الإسلامية التي يدين بها شعوب الإسلام.

ومع أن أولئك البدو لايزالون على بساطتهم فهم يدلون بأقوالهم

---

(١) يقع قصر الصعيدي على سفح جبل قرب مكان يعرف بـ الكاف بالقرب من عقيله وقد بني قصر الصعيدي قبل حوالي ١٧٠عام تقريباً، راجع مقدمه عن آثار المملكة العربية السعودية، إدارة الآثار والمتاحف، الرياض ١٩٧٥م. ص ٩٢.



أطلال بناء قديم يمتد طوله لأكثر
من كيلومتر، يقع غرب جبل الصعيدي بالقرب من الكاف- قريات الملح

وأفعالهم على فطنة وانتباه إلى ما يصدر منهم، فلا يتخذون من الشؤون السياسية والمباحث الخاصة برجال دولتهم مثاراً للبحث أو التسلية كما يفعل غيرهم من أبناء الأمم الشرقية الأخرى فهم يقتصرون على ترديد هذه العبارة «**المُلك لله ثم لعبد العزيز بن سعود**»[1] وتراهم يقصرون أحاديثهم في طوال أسفارهم على رواية قصص مشاهير العرب من بطولة وكرم وتمسك بأصول الدين والفضائل، ومع أن الشعر نبت في أرض العرب فإن أهل بادية نجد الوسطي تعده حراماً لأنه تغلب فيه الحماسة دون ذكر الله، أو الغزل وهذا ما يعده العرب نقيصة خلقية تعافها نفوسهم. وأبلغ مثال على تطور أخلاق العرب أننا مررنا ببقعة تدعي «حظوظة»[2] تقع على سفح تل رملي في وسط الصحراء ذات تربة طينية لزجة لايستطيع الإنسان السير عليها ولا يمكن ان تقربها أقدام الإبل، ويقول العرب انها كانت مكان «مدينة لوط» التي غضب الله على أهلها كما جاء ذلك في الفرقان، ويقولون أن بطن هذه البقعة تحتوي كنوزاً من الذهب وغيره من النفائس ومع ذلك فلم تحدث نفس أفقر أعرابي في الوصول إليها أو التطلع إلى ما يحوية جوفها من كنوز باعتبار أن أرضها نجسة وقد غضب الله عليها وعلى كل من كان يعيش فوق أديمها في غابر الزمان! وهي نفسية تدل على تدين شديد واستمساك متين بأوامر الله ونواهيه.

---

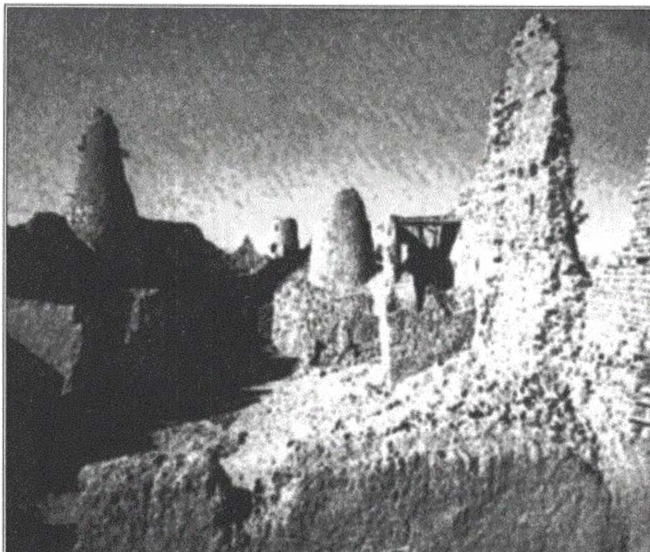
(١) يذكر العميد الركن على الشهري في كتابه نقلاً عن كتاب الرواد أن أول من نادى بكلمات «**المُلك لله ثم لعبد العزيز**» هو سعد بن بخيت التركي عندما صعد على سطح المصمك بعد إستيلاء عبد العزيز على الرياض وتوجد رواية أخرى تقول أن المنادي الذي ذكر ذلك هو عبد الله بن شنار الدوسري، راجع على بن شايخ البكري الشهري: تأثير شخصية القائد وبناء المعنويات في جيش التوحيد بقيادة الملك عبد العزيز، ص ٢٩.

(٢) الصحيح حضوضي بدلاً من حظوظة.

في الجوف(*)

وفي اليوم الثامن وصلنا إلى مكان يسمونه «الفرجية» يحيط به عدة جبال كساها البرد وأحاطت بها الحشائش الخضراء فبانت للناظرين كأبدع

(*) الجوف: هو المسمى قديماً دومة الجندل. وقال ياقوت الحموي الجوف هو المطمئن من الأرض، معجم البلدان، ج٢، ص١٨٧ وهو المدينة الرئيسية وسط منطقة زراعية .... إلخ، كبيرة واقعة إلى شمال النفود على رأس وادي السرحان، والواح واقعة في منخفض يقع نحو ٥٠٠ قدم تحت سطح الصحراء المحيطة بها وتوجد واحات صغيرة أخرى تابعة لواحة الجوف، واقعة إلى الشمال الشرقي منها فهي: سكاكا، وقارة، والطوير، وجاوه؛ وسكاكه هي الأكبر، ومزارع النخيل فيها كثيرة حتى أنها فوق تلك التي في الجوف نفسها، ويبلغ طول واحة الجوف نحو ٣ أميال في نصف ميل عرضاً، وهي تمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي، وكلها حدائق وبساتين، وبينها نحو ١٢ قرية وبها نحو ٤٠٠ منزل، وليس بالقرية شوارع ولا أسواق، ومن مظاهر القرى هنا أن بعض بيوتها يقام إلى جانبه برج يبلغ إرتفاعه حوالي ٤٠-٥٠ قدماً و١٢ قدماً عرض حائطه، وله مدخل صغير وبه منافذ صغيرة، وفي بعض البيوت يكون البرج جزءاً من البيت نفسه. وموقع الجوف الجغرافي مهم جدًا، لأنه يقع على الطريق المباشر ما بين سوريا ووسط بلاد العرب، وهي منفصلة إذ تقع في المنتصف ما بين الفرات وطريق الحجاز الحديدي، وبين جبل شمر وجبل الدروز، وعلى بعد نحو ٣٠٠ ميل من كل من هذه المواقع وهي الواحة الوحيدة الواقعة ما بين العقبة وبغداد.


منظر من داخل قصر مارد بالجوف

ما تراه العيون في سويسرا ذات المناظر الطبيعية البهيجة أضف إليها جمال الصحراء وسكونها الرهيب وجلالها الخاطف للألباب. وهكذا مر بنا ضحى اليوم التاسع مر النسيم العليل فإنستنا هانيك المناظر ماسبقتها خلال الثمانية الأيام من طرق موحشة وصحراء جرداء. ووصلنا إلى بلدة «الجوف» فلما علم رجال أميرها عبد الله محمد بن عقيل بقدومنا حتى خفوا إلى لقائنا، وكان الأمير ذاته على أبواب المدينة في انتظارنا ليحيينا ويدعونا لضيافته باسم جلالة الملك ابن سعود، وهكذا لبينا الدعوة شاكرين.

و«**الجوف**» بلدة صغيرة تقع في واد منخفض تحوطها الجبال من جميع جهاتها ولعل ذلك أصل تسميتها بالجوف أي أنها واقعة في جوف

الجبال والصحراء. وتكثر فيها النخيل التي يؤتي ثمراً ممتازاً على سواه بلذة طعمه وسرعة هضمه، ويزرع أهلها كذلك القمح والشعير وبعض الخضر وأشجار الفاكهة كالليمون والبطيخ والخوخ والعنب والمشمش ويشتغلون بالتجارة وبعض الصناعات كدبغ الجلد ونسيج الصوف الذي تصنع منه العباءات المعروفة باسم «عبي الجوف» وقد جاء ببعضها إلى هنا الأمير سعود أثناء زيارته مصر. وتروج هناك تجارة الابل والماشية، ويكثر في صحاريها طير النعام الذي يتخذه الخاصة والأمراء طعاماً لهم. وكذلك تكثر الغزلان والحمار الوحشي ذو الخطوط الذي نشاهده في مصر بحديقة الحيوانات بالجيزة.

وقد قدم لي أمير «الجوف» من لحم الغزال والنعام طعاماً على مائدته فلم ازدرده بشهية لعدم اعتيادي تناوله ولكنهم يعدونه أفخر اللحوم وأجلها شأناً في أكرام خاصة ضيوفهم. ولا يفوتني أن أذكر أن الأمير عبد الله بن عقيل لم يكن بدويًّا قحًّا كأكثر أمراء الجزيرة ولكنه على جانب من العلم والاطلاع غير قليل، وبلاده تحكم طبقاً لأحكام الشرع. على أن مما يوجب العجب ان جريمتي السرقة والزنا تكاد أن تكونا معدومتين قطعيًّا في تلك البلاد، وأذكر أن أحدهم حضر إلى مجلس الامارة أمامنا وأبلغ أن كيسا من البن ضاع منه على مسيرة أربعة أيام من «الجوف» وهو قادم من جهة «حائل» ومضى إلى حال سبيله، وحدث بعد يومين أن حضر رجل كان قد سلك هذه الطريق فسأله الأمير عما إذا كان قد وجد شيئاً في الطريق أثناء سفره؟ فقال أنه وجد كيساً من البن، فسأله الأمير. ومن أين عرفت أن به بُناً؟ فأجابه بأنه جسه من الظاهر بعصاه ثم تركه مكانه، فما كان من الأمير إلّا أن أمر بضربه خمسين عصا، وهنا رأيت أن أسأل الأمير عن سبب أنزال هذا العقاب بالرجل وهو لم يسرق. فأجابني قائلاً: كان يجب عليه أن يرى الكيس ولا يلمسه حتى يأتيه صاحبه فيأخذه. وقص عليَّ الأمير على سبيل التدليل على أمانة أهل نجد وبعدهم عن اقتراف السرقة مهما بلغ



قصر مارد الأسياح ويقع شمال مدينة بريدة على مسافة ٧٠كم

شأنها أن يرى أحدهم الذهب في الطريق فلا تمسه يده مهما كان فقيراً معدماً.

وقصر الإمارة هناك يتصل ببناء قديم العهد بناه الاسرائيليون في أيام عزهم وصولتهم ويطلق عليه اسم «قصر مارد»[1] مشيد بالأحجار وله برج كبير أشبه بقلعة حربية ويقولون أنه بني قبل ميلاد النبي ﷺ بأربعمائة عام.

---

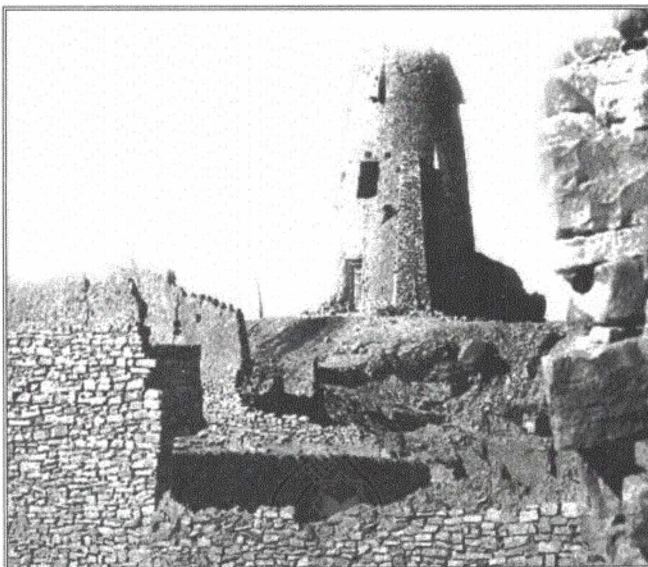
(١) قصر مارد يقع شرق عين ابن فهيد، يقوم على أكمة سوداء وسط روضة العين وهي =

ويمتاز أهل «الجوف» على شدة فقرهم بحسن وفادة الغريب وأكرام الضيف، وسوادهم من أصحاء الأبدان لا يشكون مرضاً ولا يذكرون علة على شفاههم، والسر في ذلك هو جودة مناخ الجوف وطيب مائها وخصوبة أرضها. وعلى ذكر الزراعة فهم يستخرجون الماء للزراعة بواسطة دلاء من الجلد مشدودة بحبال قد ربطت أطرافها بأعناق الأبل، فإذا ملئت الدلاء بالماء وشعرت الإبل بامتلائها نزلت إلى منحدر بجانب البئر وعندئذ تكون الدلاء قد ارتفعت إلى علو وأفرغت ما بها من الماء في حوض ذو فتحات متصلة بالأرض المراد ريها، ويسمون طريقة الري هذه «التني».

منع التدخل في شؤون المملكة

وقبل أن نغادر «الجوف» قص عليَّ الأمير أن جماعة من السواح الأمريكان والإنجليز طالما حاولوا ارتياد مابعد الجوف بحجة الاستطلاعات العلمية والجغرافية فلم يأذن لهم الملك ابن سعود مخافة أن يكون لهم شأن آخر كهاتيك الشؤون الاستعمارية التي بدأها أمثال هؤلاء في غير بلاد العرب بمثل تلك الأسباب ثم كانت النتيجة بلاء على أهلها. مثال ذلك أن رجلاً إنجليزيًّا يدعي مستر «ابشر» ذهب إلى «الجوف» على رأس قافلة من السيارات كلفته أموالاً طائلة بحجة اقامة مصنع للفخار من طينة معروفة بصلاحيتها لهذا النوع فلم يأذن له الملك. وهكذا أصبح

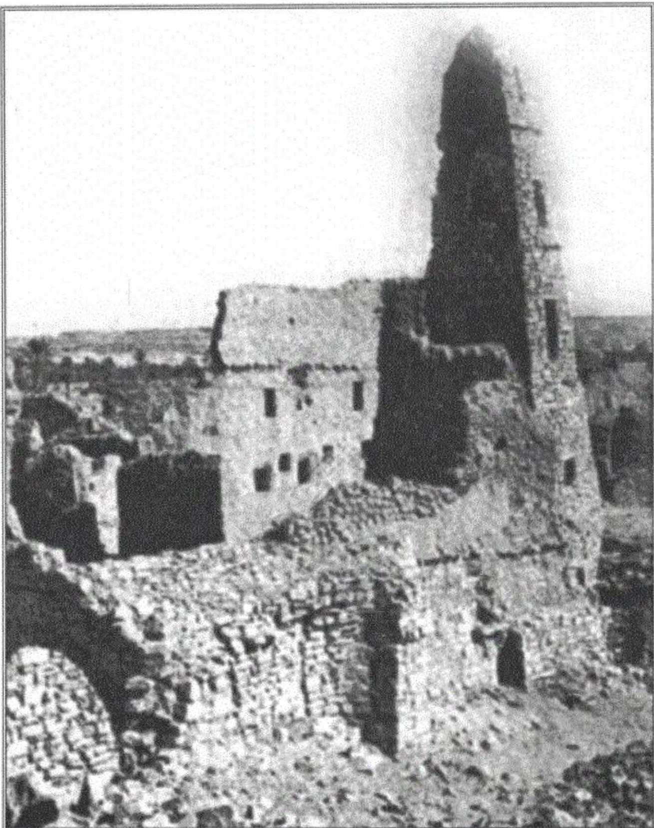
= واسعة المساحة وتسمى أم رجم وتستخدم للزراعة الشتوية على الأمطار وشكل القصر مربع وتبلغ مساحة ٤٥× ٤٥م تقريباً ومبنى من الحجارة والآجر والجص من جهته الغربية توجد بوابتان متوسطتان تظهر من أعلاهما بقية درج للصعود والنزول، ويبلغ سمك أغلب حيطانه الخارجية ١,٢٠م تقريباً والداخلية أقل ويظهر من طرازه أنه من العصر العباسي. راجع **خالد أسكوبي وآخرون**: **القصيم تراث وحضارة**، ص ٣١.



برج من الطين في قصر مارد بالجوف

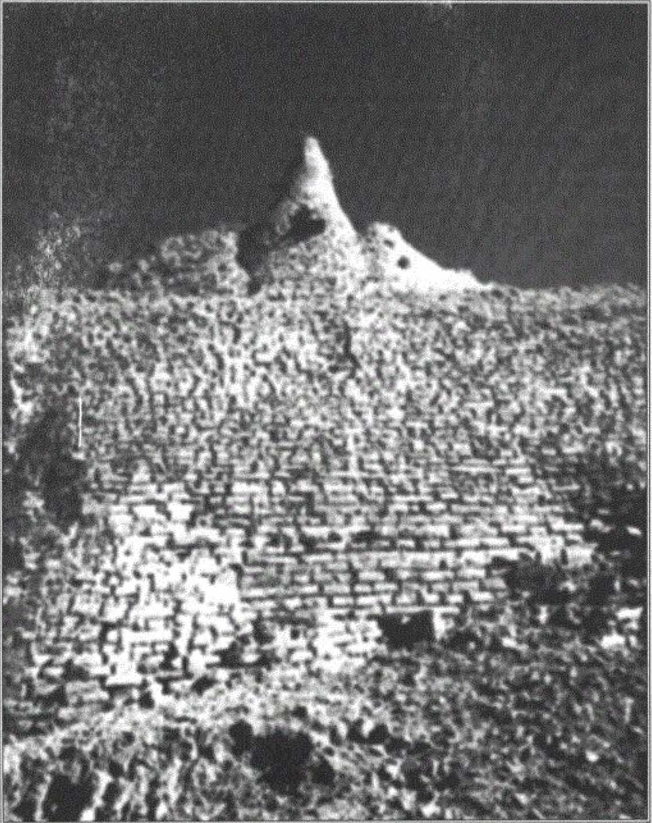
معروفاً في بلاد الغرب أن نجداً لن تصلح أرضها لوطء أقدام السياح والعلماء والخبراء والمهندسين الأوروبيين، حتى أن أحدهم أكد أن في وسعه أن يفتح آباراً للبترول «بالرياض» عاصمة نجد فرفض طلبه مع شدة حاجة أهلها إلى البترول وغلاء ثمنه، في حين أن ابن سعود يتمنى أن تصل إلى بلاده بعثات علمية من كل مطلب ومشرب على أن تكون شرقية إسلامية بريئة لا مطمع لها ولا مأرب. فهو يحب العلم ويقدره ويرجو لبلاده العمران والرفاه ولكنه يرفض كل ذلك بشدة لوجاءه من طريق مريب.

و«حائل» تبعد عن الجوف نحو عشرة أيام على ظهور الإبل، وقد



منظر عام يوضح موقع مسجد عمر وما حوله من الأطلال في واحة الجوف

بدأنا السير في هذه الطريق فإذا بها طريق موحشة بلقع. فكنا نسير صاعدين فوق تلال ضيقة رملية تشرف على حزون بعيدة الغور، ثم نهبط منها منحدرين إلى مغاور ومجاهل يشرد عندها اللب وينخلع لها القلب. ذلك



منظر تفصيلي لقصر مارد بالجوف

لأنه إذا اختل توازن الراكب على الإبل قليلاً أو عثرت أقدام الإبل كان الهلاك محققاً إذ يسقط في هوة لا نجاة منها، وكانت عيون الماء خلال الستة الأيام الأولى معدومة ولولا ما نحمله من الماء على ظهور الابل وما



منظر تفصيلي لقلعة زعبل في سكاكا

كانت تملأ به أجوافها منه لهلكنا نحن وهي ظمأ، على أننا مع ذلك لم نستطع قط أن نسرف في الماء فلم نغتسل بقليل ولا بكثير منه، وما كاد فجر اليوم السابع ينبلج حتى وصلنا بلدة تدعى «جبة»[1] ذات مبان من طين أبيض يلفت الأنظار، فأخذنا حاجتنا منها بعد أن استرحنا قليلاً، وما كان أكبر دهشتي حين أقبل علينا نفر من أهل تلك البلدة يحتفون بنا ويسألون عني بالاسم، وقد علمت أن بعض رجال القافلة التي سبقتنا أنبأهم بوصول مصري متحضر ينوي زيارة أمير الرياض فكأنهم بذلك عبروا عن سليقة الكرم العربي جملة ونابوا عن أميرهم خاصة.

وفي اليوم التاسع وصلنا إلى قرية تدعي «قنا»[2] وينطقون الحرف

---

(١) مدينة جبة من قرى جبل شمر وهما جبلا طئ أجاوسلمى ومن قرى جبل شمر أيضاً حائل وقفار وموقق وبقعاء وسميراء وكهفة، وغيرهم، راجع الآلوسي: تاريخ نجد، ص ١٩-٢٠.

(٢) قنا مدينة تقع في الطريق بين الجوف وحائل ويحدها من الناحية الجنوبية الغربية =

الأول منها بالجيم كما ينطقها أهل مديرية قنا المصرية، وهذه القرية صغيرة جدًّا لا أثر فيها للأخذ والعطاء حتى أننا أردنا شراء شاة لطعامنا فلم نجدها، على أن ذلك لم يسؤونا كثيراً فقد وصلنا إلى حائل بعد ظهر اليوم التالي مارين في طريقنا بثلاث قري أكبرها «أم القلبان» ولا تزيد مبانيها على أربعة بيوت يحيط بكل بيت بعض النخيل. ولما صرنا على قيد أميال من حائل كان نائب الأمير عبد العزيز بن مساعد بن جلوي[1] وهو ابن عم الملك ابن سعود في استقبالنا وقد رحب بنا باسم أميره وسار بنا حتى دخلنا «حائل».

= مدينة حفر وفي الشمال الغربي جبة وفي الجنوب الشرقي مدينة حائل، راجع خريطة رقم ٥، أطلس العالم الكبير، مكتبة الصغار، بيروت ١٩٩٩م.

(١) تولي عبد العزيز بن مساعد بن جلوي حكم بريده حتى عام ١٩٢١ ثم تولى أمارة حائل بعد سقوطها على يدي الملك عبدالعزيز الذي كان يختار الأمراء من أبناء عمومتة وأبناء أخوته وإخوته على أساس قدرتهم وولائهم الشخصي له، راجع جوزيف كوستنر العربية السعودية من القبلية إلى الملكية، ص ١١٦.

في حائل[*]

«حائل» هذه اسم على مسمى فهي حائل بين بلاد نجد وبين ملحقاتها الشمالية وتعد بالنسبة إلى غيرها من البلاد التي مررنا بها مدينة عامرة ذات شوارع فسيحة منظمة وفيما سوق كبيرة تمتزج فيها تجارة الماشية والإبل[1]، وهي أقرب بلدان نجد إلى الحجاز فهي تبعد عن المدينة المنورة بنحو ثمانية أيام فقط، وإلى الشام بنحو خمسة عشر يوماً، وإلى العراق بما يقرب من ذلك على ظهور الإبل وهي محطة رحال التجار

(*) قال الحفصي حائل موضع باليمامة لبني حمان، وقيل موضع باليمامة لبني قشير، وقال أبو زياد بل هو موضع بين أرض اليمامة وبلاد باهله وقال الكلبي حائل واد في جبل طيء وقيل حائل تقع على سفح الطرف الشمالي لجبل أجا على بُعد خمسين كيلومتر إلى جنوبها الشرقي يقع جبل سلمى وتبعد عن الرياض ٧٤٥ كيلومتر وأسم حائل هو الإسم الصلي للوادي لوقوعه حائلاً بين جبلي شمر أجا وسلمى وكانت تسمي بقرية حائل وأزيل إسم القرية وبقى حائل وهي مركزاً تجاريًا هامًا يربط اربع طرق هي حائل الجوف، وحائل بريده، وحائل النجن، وحائل الجرعاء، راجع ياقوت: معجم البلدان، جـ٢، ص ٢٠، مقدمه عن آثار المملكة العربية السعودية، المنطقة الشمالية، ص ٦٤- ٦٥.

(١) يذكر الآلوسي أن حائل بلد واسعة الطرق عذبه المياه طيبه الهواء، راجع الآلوسي: تاريخ نجد، ص ٢٠، ويتبع منطقة حائل إداريًا كلًا من بقعاء والعزالة والشنان، راجع المملكة العربية السعودية في مئة عام، دارة الملك عبد العزيز، ص١٤.

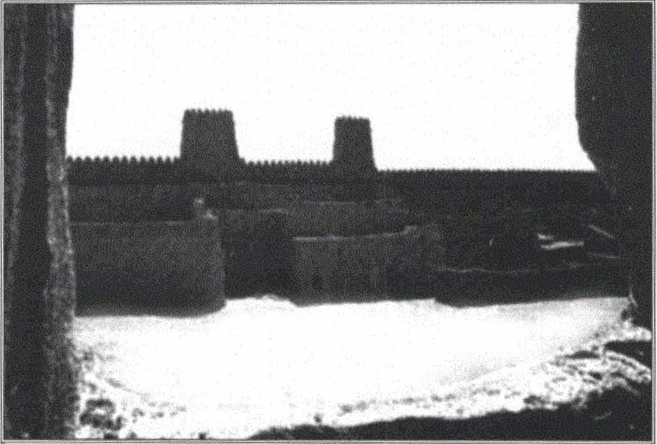


أطلال حوض تجميع المياه المتصل بإحدى برك زبيدة في منطقة فيد جنوبي حائل

القادمين من هاتيك الديار والمسافرين إليها وتروج فيها تجارة الأرز الذي يجلب من الهند إليها وهو بمثابة مادة أولية للغذاء نظير الحنطة في مصر، وتزرع في جوارها مساحات كبيرة من الخضر والفاكهة ومع كثرة وجود النخيل فإن ثمره رديء غير مرغوب فيه إلا عند الطبقة الفقيرة جدًّا[1]. وقد شاهدنا بعض النسوة يبعن الخبز والفاكهة والخضر والدجاج والبيض في سوقها وهن محجبات بجلابيب سوداء وفوقها جلباب بشكل العباءة وهن في غاية الحشمة والوقار لاتسمع لهن صوتا ولا يتحدثن مع السابلة إلا بالقدر اللازم لبيع ما بأيديهن من السلع.

---

(١) يقول الآلوسي: أن بلده حائل فيها التمر المعروف بحلوة الجبل وهو وحشي وبلدي وكلا النوعين من أحسن التمور المشهورة وله نوعين شقراء وحمراء وهو نحو الإبهام كما يوجد بها النخيل والأشجار التي تسقي من الآبار والعيون، راجع الآلوسي: المرجع نفسه، ص٢٠.



منظر عام لقصر إبن رشيد بحائل

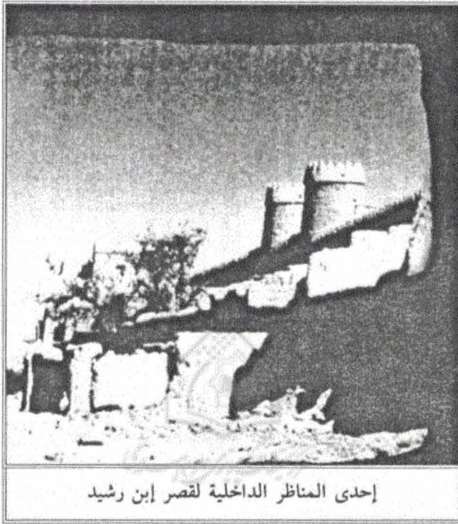
أما القصابون هناك فينحرون الماشية ويقسمونها إلى أربعة أجزاء يسمونها «أوصالا»[1] فيباع الجزء منها بمبلغ يتراوح بين العشرة والثلاثة عشر قرشاً، أما أثمان الدجاج فرخيصة جدًّا إذ تباع الدجاجة الكبيرة بثلاثة قروش فقط.

وأهل هذه المدينة يتعاملون بعملة فرنسية يسمونها «الشوشي» ويسميها بعضهم الريال وهي قطعة فضية قيمتها أحد عشر قرشاً تقريباً، أما أجزاؤها فهي «البيشلي» قطعة من عملة تركية وهي المعروفة

---

(١) عن الأوصال يذكر ابن منظور في كتابه أن الموصل: المفصل، وموصل البعير ما بين العجز الفخذ، قال أبو النجم «تري ييبس الماء دون الموصل: منه بعجز كصفاة الجيحل» والوصلان العجز والفخذ، والوصل هي كل عظمة على حدة لا يكسر ولا يخلط بغيره ولا يوصل بغيره وهو الكسر والجدل والجمع أوصال والأوصال مجتمع العظام وكله من الوصل، راجع ابن منظور: لسان العرب، جـ٦، ص ٤٨٥٢.

بالبيشلك بخلاف أهل قريات الملح والجوف فأنهم يتعاملون بالمجيدي التركي[١].


إحدى المناظر الداخلية لقصر إبن رشيد

(١) كانت العملات التركية النحاسية والفضية والذهبية منتشرة في أنحاء نجد كذلك الدولار النمساوي المسمي بالريال الفرنسي حيث كان من أهم العملات السائدة في أكثر أقاليم شبه الجزيرة وقد بدأ الملك عبد العزيز بعد توحيد المملكة في توحيد النقود حيث إستبدل العملة النحاسية المطلق عليها إسم التفاريق وكانت عمله تركية بنقود نحاسية أخرى سعودية سكت في مكة المكرمة عرفت بإسم القرش السعودي ونصفه وربعه، أما العملات الفضية فقد إستبدل الدولار النمساوي (الريال الفرنسي) الذي شاع إستعماله في البلاد العربية بعد الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨م، بالريال السعودي الفضي سنة ١٩٢٨م. إما العملة الذهبية فكان الناس يستعملون الجنيه الإنجليزي والليرة العثمانيه، لكن الملك عبد العزيز سك الجنيه السعودي الذهبي قيمته ٤٠ ريال، راجع المملكة العربية السعودية في مئة عام، من ٥٩-٦٠.

☆☆ في ضيافة أمير حائل ☆☆

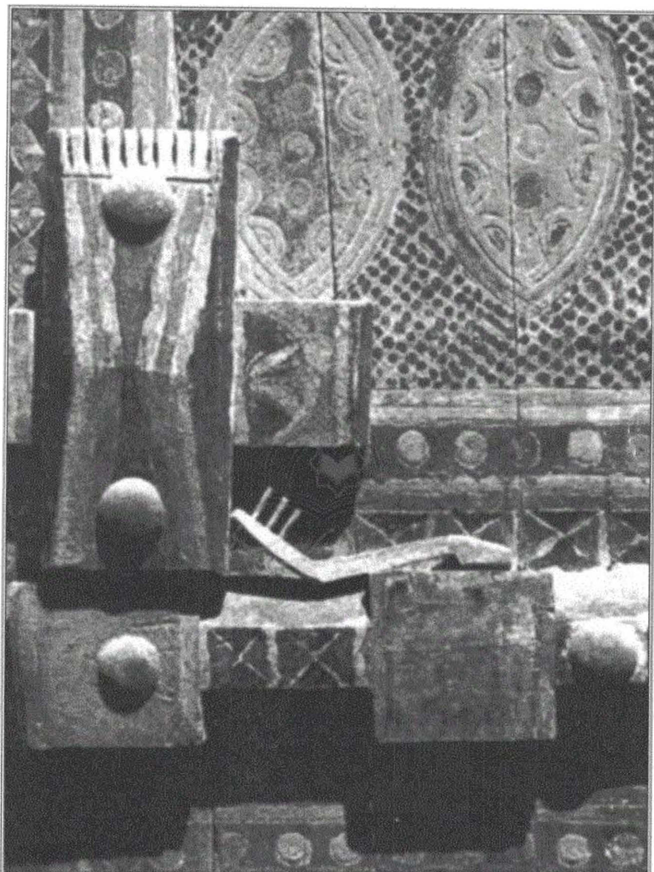
وفي اليوم التالي لوصولنا دعانا الأمير عبد العزيز بن مساعد إلى قصر الإمارة[1] وقد استقبلنا فيه استقبالاً حسناً وأنزلنا بمنزل خاص



أحد حوائط قصر إبن رشيد التاريخي بحائل

---

(١) هو الأمير عبد العزيز بن مساعد بن جلوي بن عم الملك عبد العزيز بن سعود وأحد المقربين منه وقد كان ذلك الأمير ضمن الأربعين الذين دخلوا الرياض مع الملك عبد العزيز، وقد ذكر الأمير عبد العزيز بن مساعد بن جلوي أنه كان يحمل خنجراً فقط لعدم توفر الأسلحة والعتاد أثناء الهجوم، راجع الأمير: طلال بن عبد العزيز: صور من حياة عبد العزيز، ص٢٣.



باب خشبي بقصر إبن رشيد بحائل



أحد المناظر الداخلية لقصر إبن رشيد بحائل

ورتب لنا خدمة خاصة، وهذا الأمير يخيل للرائي لأول نظرة أنه على شيء من العجرفة والكبرياء ولكنه في الواقع على جانب كبير من رقة الشمائل ومكارم الأخلاق، وهو مطلق الحكم في إقليمه وما يجاوره من ملحقات نجد الشمالية فهو الحاكم المسموع الكلمة النافذ الإرادة بعد الملك ابن سعود. ومما يستحق الذكر أنه معروف بالشدة والبطش إذا خالف أحد أحكام الشرع أو أخل بالأمن العام. ويستخدم الأمير هذه في روحاته وغدواته وأسفاره سيارتين يؤتي لهما بما يلزمهما من وقود وأدوات من القدس وشرق الأردن ويقوم بقيادتهما سائق سوري يساعده آخر نجدي.

وقد دعانا أحد رجال القصر لمشاهدة سجن المدينة وكنت أحسبه

عامرا بالمحكوم عليهم ولكني بهت حين وجدته خالياً إلّا من حراسه الذين ما كانوا يحرسون غير جدرانه وخشبته المستطيلة الأفقية التي تتدلي منها سلاسل حديدية تقيد بها أقدام المسجونين- ان وجدوا[١]- وقد عرفت

---

(١) إن سرعة إحالة القضايا إلى المحاكم الشرعية، وسرعة البت في القضايا وتحكيم الشريعة الإسلامية وإقامة حدودها، والحكم بالتعزيرات الشرعية، وتحقيق العدالة على الجميع دون محاباة أو تميز، وعدم التدخل في شؤون القضاة من أي فرد في الدولة لمصلحة أي مجرم أو مخل بالأمن والنظام، كما أن تنفيذ الأحكام الشرعية الصادرة بإقامة الحدود أو التعزيز كالإقتصاص من القاتل، وقطع يد السارق وجلد الزاني والزانية وإشهار هذه الأحكام وتنفيذها علنا في مواقع إرتكاب الجريمة للعقوبة له أثراً في ردع من تسول له نفسه إرتكاب جريمة، فلا شك أن منظر الرأس المفصول عن الجسد أو اليد المبتورة أو وقع السياط على بدن الجاني الأثيم يعد رادعاً فعلاً في قمع الجريمة والحيلولة دون تكرارها أو إستخفاف مرتكبيها بالعقاب، هذه هي العناصر التي دفعت بالمملكة العربية السعودية إلى النجاح والبروز في الدنيا: لتصبح فيما بعد ميزة يتحدث عنها المعاصرون لها، ويسجلها التاريخ في أرحب صفحاته ويشهد بها الابعدون قبل الأقربين، وهذا الذي بذل من أجل توطيد الأمن وإنتشار العدل هو جزء من الخطة العريضة التي رسمها الملك عبد العزيز للرفع من شأن المملكة بوعي كامل للواجب الملقي على عاتق الحاكم الصالح، التضحية من أجل رفع كلمة الله تعالى في الأرض. ومن ثبات الأمن في المملكة العربية السعودية ودلائله، إن ثبات الأمن في المملكة العربية السعودية اليوم أمر مشهود فالأمن والسلام والإطمئنان يسودان ربوع المملكة، أمن لم تظفر به أي دولة من دول العالم المتعالية في حضارتها وتقنيتها وأجهزتها المتطورة، ففي تلك الدول تسرق البنوك وتنتهب في رابعة النهار، ويقتل الناس، والحكومات عاجزة عن توفير الأمن لهم، فالجريمة متغلغلة، والسجون مليئة، أما في صحراء الجزيرة هنا فإن الإنسان يستطيع السفر إلى أى جزء من المملكة دون أن يعترض سبيله قاطع طريق، يمر معه الدروب التي كان والده وجده يخافون أشد الخوف من سلوكها ويتجمعون للسفر من خلالها حتى لا تصل إليهم أيدي الجناة، وحجاج بيت الله الحرام إحتضنهم هذا الأمن، فعمتهم الطمأنينة على الأنفس والأموال والأعراض، فيعودون إلى أوطانهم وقد أدوا فريضتهم دون مساس من =

السر في خلو السجن من المسجونين. ذلك لأن الأحكام الشرعية وحدها هي خير وازع تقطع خط الرجعة دون الجرائم على أشكالها وضروبها، وقد علمت أن المسجون رغماً عن قيوده داخل سجنه فإنه يعامل معاملة حسنة ويطعم طعاماً عاديًّا، ويؤذن له بأداء الصلاة في أوقاتها، والناس على اختلاف مشاربهم يحترمون القانون الشرعي ويعدونه تنزيلاً سماويًّا لا سبيل إلى مخالفته(١).

= خوف أو هلع، راجع عبد الرحمن بن سليمان الخليفي: الأمن في عهد الملك عبد العزيز، دارة الملك عبد العزيز، ص ص ١٨٨-١٨٩.

(١) يذكر الدكتور عبد الرحمن بن سليمان الخليفي في بحثه عن الأمن في عهد الملك عبد العزيز، من السياسة الموفقة الحكيمة للملك عبد العزيز في الأمن جعل تطبيق الشريعة الإسلامية هو الأساس للأمن كما تقدم، إلّا أن هذا التطبيق لا يمكن أن يتم من غير وجود حاكم قوي عادل نافذ الكلمة مرهوب الجانب حنكته التجارب وإستفاد من الأحداث، وقد توفرت هذه الصفات كلها في الملك عبد العزيز الذي عاش ردحاً طويلاً في قلب الجزيرة العربية يختلط بقبائلها، ويتعرف على الأعراف المختلفة المنتشرة بينهم، وتتحكم في تصرفاتهم، فإستطاع أن يطبق تعاليم الشريعة فيهم تطبيقاً شاملاً واعياً من خلال سياسة حكيمة تمثلت فيما يلي:

أولاً: تحضير البادية وجمعها في مجمعات سكانية تسمي كل منها هجرة؛ أي مكان إقامة وإستيطان، وقد ساعد هذا العامل على تغيير أوضاع البادية من حل وترحال بحثاً عن الماء والكلأ ومن نزاعات حولها.

ثانياً: توفير آلات زراعية لسكان الهجر لربطهم بالأرض والإستقرار فيها، وتوجيه إهتمامهم إلى إستصلاح الأرض وزراعتها بدلاً من الإكتفاء بالمرعي.

ثالثاً: حفر الآبار الإرتوزازية لإستخراج المياه الجوفية بدلاً من الإعتماد على المطر فقط، وبذلك توفير للمزارعين ما يحتاجون إليه من مياه للزراعة ولمواشيهم.

رابعاً: تقديم الإعانة الضرورية للبدو الرحل في حالة إنحباس المطر أو تلف الزرع أو غزو الجراد أو غير ذلك من الجوائح.

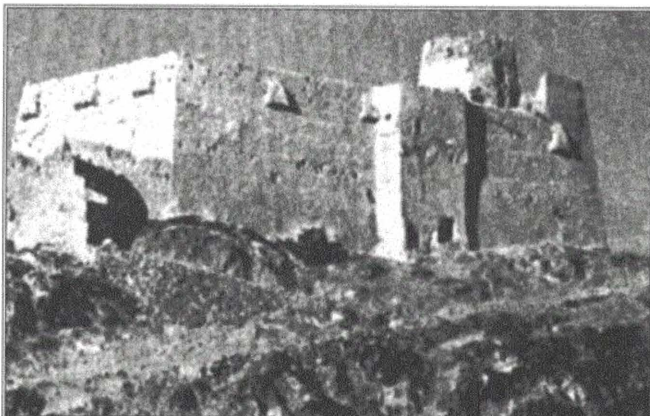
خامساً: تسجيل القبائل في سجلات خاصة بدواوين الدولة، وتخصيص مخصصات سنوية لرؤساء القبائل. =

= سادساً: إحكام ربط الناس بالشرع والقبائل بشيوخها، ورفع معنوية رؤساء القبائل؛ ليتمكنوا من ضبط أفراد القبيلة وتسليم المخالف منهم للدولة لمحاكمته.
سابعاً: إعتبار القبيلة متضامنة في المسؤولية عن أي جريمة تحدث من أفرادها، أو في حدود مواطنها، وإلزام القبيلة ممثلة في رؤسائها فيها بضبط أي جان، وتقديمه للعدالة، وإلا إعتبروا متسترين عليه ومتواطئين في إرتكاب الجريمة ومستحقين للعقاب؛ مما جعل رؤساء القبائل يأخذون على يد الجاني منهم، ويسلمونه للدولة.
ثامناً: التوعية الدينية وإرسال الدعاة والوعاظ وطلبة العلم، وحفظ القرآن الكريم لإرشاد الناس وتعليمهم أمور الدين، وتقوية الوازع الديني في نفوسهم، وترغيبهم في الثواب، وترهيبهم من العقاب، مما كان له أثر كبير في كف الشرور والآثام وترويض النفس وتيسيرها للخير.
تاسعاً: تمكن المسؤولين عن حفظ الأمن من حكام المناطق وممثليهم ورجال الشرطة في الكشف عن الجرائم وإكتشاف مرتكبيها بإقتفاء آثار المجرمين وسرعة الإخبار عن تنقلاتهم ومطاردتهم وضبطهم والتحقيق معهم بدقة وبأساليب علمية وفنية وتقديمهم إلى المحاكمة.
عاشراً: تتبع الملك لأخبار الجرائم التي تقع في أي جزء من المملكة، والاهتمام بتفاصيلها، ومتابعة نتائجها، وحث المسؤولين على بذل الجهود المتواصلة في الكشف عنها وضبط مرتكبيها، ومناقشة الأمراء من جهة ثانية، حتى لا يضطرب بذلك حبل الأمن والاستقرار، وتسود الفوضى بدل النظام، وذلك بفضل الله تعالى ثم بثبات أساس الأمن الذي قام عليه، وهو تطبيق الشريعة وإتخاذها دستوراً لهذه البلاد: إن من فضل الله تعالى على هذا البلد الكريم أن حكمة وأفراد المجتمع فيه لا يصدرون إلّا عن تعاليم الشريعة الغراء، ويرجعون فيما يجد أو يشكل إلى العلماء الراسخين في العلم، فيسألونهم عن هذا المشكل، ويستوضحون عن أصله، فإن كان من الشرع موافقاً له أخذوا به، وإن كان مضادًّا له نبذوه وراء ظهورهم وردوه على صاحبه؛ مما كون سياجاً يحفظ للناس دينهم وأفكارهم وعقولهم، يضاف إلى ذلك إنشاء إدارة لمراقبة المطبوعات منذ وقت مبكر في هذه الدولة، كما يضاف إلى ذلك أيضاً كيفية التعامل الذي تتعامل به المملكة العربية السعودية مع المخدرات والمسكرات، وكيف عملت بشرع الله تعالى مع أصحابها، كل ذلك أوجد للناس أمناً لمعتقداتهم وعقولهم وعقول أولادهم وأفكارهم الأمن الاقتصادي والغذائي. إن الرخاء الإقتصادي رديف للأمن إذا كلما نشر الأمن ظلاله انتعش الانتاج، واختفت =

= تبعاً لذلك العوامل المؤدية للجريمة، فيحل ما يسمي بالأمن الغذائي، فلا يحتاج الناس في البلاد إلى من يوفر لهم الطعام والشراب؛ لأنهم بدؤوا بالاكتفاء الذاتي في انتاج الطعام والشراب الكافيين للمجتمع، وقد تزيد هذه الخيرات، فتبدأ هذا البلاد بتصدير خيراتها إلى البلاد الأخرى، وهذا الأمن نفسه حصل للمملكة العربية السعودية ولله الحمد والمنة، ومن هنا نلحظ أن الأمن بسائل أنواعه قد ثبت جذوره في هذه البلاد الطيبة المباركة حتى لم تعرف الجريمة المنظمة فيها، إذ إتخذت حكومتنا الرشيدة إجراءات وقائية وعقابية صارمة لم تفسح المجال لعصابات الجرائم المنظمة بدخول بلادنا ولله الحمد، حتى عدت تلك العصابات بلادنا بيئة غير صالحة للجريمة المنظمة؛ نظراً لصرامة الإجراءات التي اتخذت ولشدة العقوبات المطبقة، إذ أدى ذلك إلى انخفاض نسبة الجريمة بمعدلات عالية مقارنة بالدول الأخرى، وما نراه أو نسمع عنه من جرائم بين الحين والآخر لا يرتقي لمستوى الجريمة المنظمة. ونتيجة لذلك فإن عدداً من مؤسسات التأمين في العالم اتجهت إلى المملكة، فإفتتحت فروعاً لها ثم فشلت، وما ذاك إلا لأن الدولة هنا تطبق الشريعة فتحقق للمواطن والمقيمين من الحصانة الأمنية والحياة الآمنة ما يجعله في غني عن تلك المؤسسات. إن الاحصاءات المتوفرة تؤكد بما لا يدع مجالاً للشك أن المملكة العربية السعودية تعتمد على الشريعة الإسلامية في تعاملها مع الجريمة، وهي الاختيار الوحيد والأفضل للنجاح في تحقيق الأمن. وإن وثائق الإحصاءات في المملكة تؤكد أمرين مهمين هما:

أولاً: أن عدد الجرائم في جملته (الإعتداء على النفس والمال والعرض وغيرها من الجرائم) عدد قليل بالنسبة لعدد السكان.

ثانياً: إن مرتكبي هذه الجرائم هم من الأفراد، وأن الجريمة في المملكة العربية السعودية جريمة فردية أو ثنائية، وليست من جرائم التنظيمات الإجرامية أو العصابات التي تتألف لإرتكاب الجرائم والإخلال بالأمن، وهي أمور ظاهرة في كثير من دول العالم، حيث يقوي شأن الجريمة وشوكة المجرمين داخل عصابات تحترف الجريمة، ان هذه الإحصاءات تذكر أنه في سنة ١٤١٤هـ الموافق ١٩٩٤م، بلغ عدد جميع الجرائم في المملكة ٢٧,٣٠٢ حادثة. ويظهر لمن يطلع أن تلك الجرائم كانت جرائم فردية، وهي في حدها الأدنى في أي مجتمع إنساني، لأن هذا العدد يشمل الجرائم الكبيرة والصغيرة بل وحتى الأخلاقية وجرائم السكر، مما لا يعد جريمة في القوانين الوضعية الحديثة، وإن هذا العدد يقابله مئات الألوف، =



قلعة أعيرف شرقي حائل

وحائل ذات مناخ معتدل[1] وفيها عين ماء عذبة شافية من العلل يسمونها «ماء السماح» لا تقل أهمية عن مياه «فيشي» المعدنية الشهيرة فهي تذيب الأملاح وتشفي أمراض الكلي بسرعة وتنقي الدم وتساعد على الهضم بصورة مدهشة، وأما مياه عيونها الأخرى فلا بأس بها أيضاً يدلك على ذلك اعتدال صحة سكانها وامتلاء أجسامهم، وانقطاع الأمراض بينهم، وقد كانت حائل فيما مضي عاصمة لإبن رشيد الذي كان أميراً عليها من لدن آل سعود واستقل بها زمناً ثم أعيدت إلى حظيرة آل سعود مما سنأتي عليه فيما بعد.

= بل ملايين من الحوادث في الدول الأخرى، راجع عبد الرحمن بن سليمان الخليفي: المرجع نفسه، ص ١٨٦- ١٨٧.

(١) يذكر الآلوسي في كتابه تاريخ نجد أن منطقة حائل تتميز عن غيرها بمناخها المعتدل الجميل وحول ذلك راجع الآلوسي: تاريخ نجد، ص ٢٠.

وأهل حائل أصلهم من قبيلة «شمر»(١) التي كانت تضرب في البادية، فانقسمت على نفسها ورحل جزء كبير منهم إلى حائل فتحضروا فيها وظل الجانب الآخر على حالته(٢)، ويشاهد في حائل «الاخوان»(٣)

---

(١) قبيلة شمر: يطلق على مجموعة من القبائل التي تقطن في شبه جزيرة العرب في المنطقة التي كانت تعرف قبل الحرب العالمية الأولى بإمارة الرشيد في المملكة العراقية والجمهورية السورية وتنقسم إلى عدة بطون وأفخاذ أما شمر نجد فتدعي بشمر الجبل وهم الذين كانوا سابقاً تحت حكم ال رشيد وأطلق عليه شمر الجبل لإقامتهم بأجا وسلمى وهم جبلين بنجد، وينتمي أكثر سكان حائل إلى شمر الجبل ويقدر عدد بيوتهم بـ(٥٠٠٠) آلاف بيت، عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب، ج٢، ص ٦٠٨- ٦٠٩.

(٢) أنشأ الملك عبد العزيز الهجر أي القرى وذلك لتحضير البدو وشيد في الهجر المساجد والمدارس وبعث الدعاة لتعليم الناس تعاليم الدين الإسلامي وكان أول هجره أنشأت هي الأرطاوية في بادية مطير وهي أكبر هجره وأهمها وتبعها هجر متعددة لقبائل مختلفة مثل حرب وعتيبة وقحطان وغيرها حتى بلغ عدد الهجر سبعين أو يزيد، وكان البدو في الهجرة صاروا إخواناً يتعصبون بالعصابة البيضاء تميزاً لهم عن سائر الناس، راجع الأمير طلال بن عبد العزيز صور من حياة عبد العزيز، ص ٣٤- ٣٥.

(٣) تكلم حافظ وهبه عن الإخوان تفصيليًا في كتابه فقال إذا ذكر الإخوان على حدود العراق، أو شرق الأردن، أو الكويت إستولى الرعب على قلوب السكان، وهب البدو بطون الصحراء لائذين بالبلاد القريبة منهم يجتمعون بجدرانها وأبراجها، فمن هم رسل الذعر والهلع في بلاد العرب؟ إن كلمة «الأخ» قد إستعملت بمعنى الحليف والمعاهد أول نشأة الإسلام، فقد آخي رسول الله ﷺ بين الأوس والخزرج من الأنصار وتناسوا ما بينهم من العداء والخصومات، وإلي هذا تشير الآية الكريمة: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾، أما في السنوات الأخيرة فقد أصبحت علماً على سكان البادية الذين تركوا السكنى في الخيام وإستقروا في أماكن معينة، وبنوا لسكناهم بيوتاً من الطين سميت «هجرة» إشارة إلى أنهم هجروا الحياة القديمة المكروهة إلى حياة أخرى محبوبة. إن أول =

= «هجرة» بنيت هي هجرة الأرطاوية سنة ١٣٣٠هـ - ١٩١١م، وسكانها خليط من قبائل حرب ومطير، ثم الغطغط وسكانها من «عتيبة» ثم «دخنة» وأكثر سكانها من حرب، ثم «الأجفر» وأكثر سكانها من شمر، وتبلغ الهجر نحو ستين هجرة، ولكن أهمها ما تقدم، ثم أخذت الهجر تنتشر بسرعة، وأخذت العشائر تقلد بعضها بعضاً في ترك حياة البادية التي أصبحت تسمى عندهم بالجاهلية كما يسمون الحياة الجديدة بالإسلام، وقد غالى فريق كبير من عتيبة في كره الجاهلية أو حياة البادية، فرأوا أن من آية الإخلاص لله ودينه، وآية الإيمان الصحيح: التخلص من كل ما يشم منه رائحة الجاهلية، فأخذوا يبيعون إبلهم وأغنامهم، وينقطعون في «الهجر» للعبادة وسماع السيرة النبوية، وغزوات الرسول ﷺ، وتاريخ انتشار الإسلام في جزيرة العرب، فوجدوا أن حياتهم الأولى تشبه في كثير من الوجوه حياة الجاهلية، كما أن حياتهم الأخيرة تشبه حالة الإسلام في أيامه الأولى، فعكف أكثرهم على تعلم مبادئ القراءة وحفظ شيء من القرآن والحديث، غير أن هذا الإنقلاب كان خطيراً وعنيفاً جدًّا، لقد تشرب هؤلاء كثيراً من المبادئ والتعاليم الناقصة، حتى اعتقدوا أنها هي الدين، وما سواها ضلالة، كما أساءوا الظن بغيرهم من حضر نجد، بل وبولي أمرهم الإمام عبد العزيز، أصبحوا يعتقدون أن لبس العمامة هي السنة، وأن العقال من البدع المنكرة، بل غالى بعضهم فجعله من لباس الكفار، ويجب مقاطعة لابسيه، وكان كثير منهم يعتقد أن لا إسلام لمن لم يسكن الهجرة مهما كان عليه من الإسلام، وترك شرور البادية وعوائدها، فلا يبدأون غيرهم من هؤلاء بسلام، ولا يردون عليهم السلام، ولا يأكلون ذبائحه، وذنب هؤلاء عندهم هو عدم سكنى الهجرة. وكان من عوائد الإخوان إذا قدموا زائرين قاموا في المسجد، وقالوا: السلام عليكم (بالإخوان) إخواننا يسلمون عليكم، وكان فريق منهم يعتقد أن المشايخ مقصرون مداهنون لابن سعود، وقد كتموا الحق عنه، وكانوا يعتقدون أن الحضر ضالون، وأن غزو المجاورين واجب، وأنه ألقي عليهم هذا الواجب من قبل الله، فلا يسمعون كلام أحد في منع الغزو، ولقد نال بعضهم الإمام عبد العزيز، فرموه بموالاة الكفار والتساهل في الدين، وأنكروا عليه تطويل الثياب والشارب ولبس العقال، إلى غير ذلك من ضروب الجهالة، وأصبحوا يحرمون كل مالا يتفق وهواهم، وإن سريان هذه الروح المتمردة يرجع إلى هؤلاء الجهلة أنصاف المتعلمين الذين أنتشروا في قرى الاخوان باسم العلم ولقنوهم هذه التعاليم وحببوا إليهم التعصب الذميم. وربما كانت سنة ١٣٤٥هـ من أشد السنين في =

= نجد، إذ كادت تقع فيها فتنة أهليه، بين الإخوان من جهة، وبين الحكومة والحضر من جهة أخرى، ولقد جرد الإمام جيشاً من طلبة العلم المتفقهين في دينهم وأرسلهم إلى الأخوان كي يصلحوا ما أفسد الأولون، كما أنه إنتزع أولئك الذين بذروا بذور الجهالة والغواية، ومنعهم من السكنى في الهجر، على أن الملك عبد العزيز- وإن نجح في ذلك كثيراً - فإنه لم يتمكن تماماً من استئصال تلك الجذور التي تمكنت من نفوسهم، ولولا أنهم يخافون سيفه، ويهابون سلطانه وسطوته لعمت الفوضى جزيرة العرب، لقد عرفت البدو في حروبهم وفي حياتهم البدوية، وعرفتهم بعد ما سكنوا الهجر وعرفت كثيراً من قاداتهم في جاهليتهم وإسلامهم، كان البدوي لا همّ له إلّا النهب والسلب وقطع الطريق، ثم هو يعد هذا العمل من مفاخر البادية، والويل للضعيف في البادية، وكان لسان حالهم يقول «المال مال الله، يوم لي ويوم لك، نصبح فقراء ونمسي أغنياء، ونصبح أغنياء ونمسي فقراء» والقوافل التجارية كانت تحت رحمة البادية، لا تمر من المنطقة إلا بإتاوة أو مجبر، والبدوي لم يكن أبداً مخاطراً بحياته، فإذا رأى أن النهب سيكون من ورائه خطر تركه، وكذلك إذا رأى دفاعاً قويًّا من خصمه تركه، والبدوي لا يعرف قلبه الإخلاص تقريباً، شيمته الرياء والنفاق، لا تنفع معه إلا الشدة المشوبة بالعدل، ولذا فلا يعول الأمراء كثيراً على عددهم ولا على قوتهم، وكثيراً ما كانوا وبالاً على صديقهم، فإذا بدرت منه بوادر الهزيمة فإنهم يكونون اول الناهبين له، ويحتاجون بأنه ما دام صديقهم منهوباً، أو مأخوذاً- كما يقولون- فهم أولى به. أما الأخوان الآن: فهم حماة الطريق، يرون حرمة التعدي على المسافر وابن السبيل، ويرون الجار والمسلم حرمته فالمسلم حرام دمه وماله، أصبح الأخوان لا يهابون الموت، بل يندفعون إليه إندفاعاً، طلباً للشهادة ولقاء الله، وأصبحت الأم حينما تودع إبنها تودعه بهذه الكلمات «جمعنا الله وإياك في الجنة» وأصبحت كلمة التشجيع على الحرب «هبت هبوب الجنة وين أنت ياباغيها»، وكلماتهم عند الهجوم «إياك نعبد وإياك نستعين»، ولقد شاهدت بعض مواقعهم الحربية، فوجدتهم يقذفون بأنفسهم إلى الموت قذفاً، ويتقدمون إلى أعدائهم صفًّا صفًّا، ولا يفكر أحدهم في شيء إلّا هزيمة العدو وقتله، والأخوان على العموم لا تعرف قلوبهم الرحمة على الأعداء، ولا يفات من تحت يدهم أحد، فهم رسال الموت أينما رحلوا. قد ظهرت قوة الأخوان الحربية في هزيمة أهل الكويت هزيمة منكرة في واقعة «حمض» سنة ١٩١٩م، ثم في حصار شيخ الكويت في «الجهرة» سنة ١٩٢٠م، وفي إبادة جيش الشريف عبد الله في واقعة =

= «تربة» سنة ١٩١٩م، وفي هجومهم المتكرر على العراق والكويت وشرق الأردن. وبالرغم من أن إمامهم كان ينهاهم كثيراً من هذه الغزوات، وأنها كان دائماً يأمرهم بالرفق وعدم القتل، وبالرغم من أن علماءهم كانوا يوصونهم دائماً بعدم قتل الأسير أو أسر المستجير، فإنهم لم يصغوا إلى أحد، وأن من يقرأ رسائل العلماء في الإنكار عليهم، وعلى أنصاف المتعلمين الذين سمحوا أفكارهم، يرى ان علماء نجد لم يقصروا في النصيحة، ويعلم أن ما يأتيه بعض الأخوان مما تأباه طبائع العرب ولا تقره الشريعة الإسلامية، لا يصح أن تلقي تبعته على علماء نجد أو الملك عبد العزيز، وللأخوان قصص طريفة تدل على بساطتهم وشدة تأثرهم بالدين:

جاء أحد الأخوان إلى أحد المشايخ وسأله عن النفاق؟ فأخبره بحده الشرعي، ثم سأله عن الخوف في الحرب؟ فقال له العالم: إذا لم تعط العدو ظهرك فلا يسمي هذا فراراً أو نفاقاً، فقال: لا، إن شاء الله لا أعطي العدو ظهوري، إن هذا كفر ياشيخ، لا، إن في قلبي نفاقاً، إني حينما كنت أهجم وجدت في نفس شيئاً من التردد بسبب ازيز الرصاص، لا بد أن يكون النفاق في جنبي، أخرج النفاق بعصاك أيها الأخ، ولكن الشيخ أفهمه بصعوبة أن هذا ليس من النفاق أو الكفر أو الهزيمة، وجاء رجل آخر حاملاً صرة فيها نقود ذهبية وجدها بعد معركة «تربة»، فسأل الشيخ: هل هي حلال له؟ فقال الشيخ: إنها من الغنيمة، ولا يحل لك إلا ما سيصيبك بعد القسمة فسلما من فوره لمتولي الغنيمة، ثم قال: لا والله لا أستحلها، فإين هذا من خلق البادية؟ إذا وجدك الأخ في الطريق ووجد شاربك طويلاً فإنه يدعوك إلى السنة ثم يضع يده على شاربك ويقص الزائد، أما إذا كنت مارًا بالهجرة فإن العملية تتم قسراً وزجراً لا بطريق النصح واللطف، وكذلك إذا وجدوا الثوب زائداً فإن المقص يعمل عمله في الزائد تنفيذاً للحديث «ما تحت الكعبين في النار» وبالرغم مما يأتيه الأخوان من الخطأ والخطل، وتجاوزهم حدود إزاء الحكومة فإن الملك ابن السعود كان يغضي عن أذاهم، ويحتمل نقدهم بحلم وصبر، قلما عرف عن غيرهم من ملوك العرب، وكان دائماً يقول: إن الأخوان يجب إحتمالهم، ومهما فعلوا فحالتهم الآن خير من حالتهم الأولى، وأما هذه العصبية والشدة: فالزمن كفيل بتخفيف حدتها.

أما شدة الأخوان في مكة- أو دخولهم لها- فحدث عنها ولا حرج، فلم تكن هنالك أي هيبة للحكومة فكل ما يعتقده الأخ منكراً يزيله بنفسه، ببندقيته أو بعصاه أو بيده، وكثيراً ما كان الملك ابن السعود ينزل على رأيهم إتقاء لفتنة قد تحدث، كما أنه كثيراً ما كان يقبض عليهم بيد من حديد إذا رأى أن المسايرة قد تضعف سلطانه في =

= جزيرة العرب. لأول مرة شاهد الملك ابن السعود التليفون في مكة، ورأي الفائدة العظيمة التي يؤديها التليفون في إنجاز الأعمال وسرعة المواصلات، ولما نقل معسكره من الزاهر (الشهداء بقرب مكة) إلى حداء أراد أن يمد سلكاً تليفونيًا بين مكة وبين حداء، وسلكاً آخر بين الرغامة وبين حداء، حتى يكون على إتصال دائم بين مكة ومقره وفي ميدان الحرب، وكنا نقطع المسافة بين مكة وبين معسكره الخاص في (٤) ساعات ذهاباً ومثلها إياباً، وبالبغال أو الإبل السريعة، كانت الخيل تقطع المسافة أيضاً في مثل هذه المدة من الرغامة إلى حداء، ولكنه عدل أخيراً عن هذه الفكرة، لأن إنشاء التليفون قد يهيج ثائرة الإخوان، فأرجأ هذه المسألة، وكثيراً ما كان الأخوان يقطعون أسلاك التليفون لأنه منكر يجب إزالته، وكثيراً ما كانوا يتعمدون قطع الأسلاك الموصلة إلى قصر ابن السعود أثناء وجوده في مكة، كل هذا كان يتحمله على مضض معتمدا على الزمن وحدث مرة أن أحد الأخوان ضرب خادماً للملك يركب عجلة «بسكليت» وتسمى بلغة نجد (عربة الشيطان) أو (حصان إبليس) بدعوى أنها بدعة وأنها تسير بقوة السحر وعمل الشيطان بدليل أن الراكب إذا نزل لم تقف، ولكن الملك أدب هذا المعتدي أدباً أرجعه إلى رشده، وفي سنة ١٩٢٦م، إضطر الملك أن ينزل على رأيهم في إيقاف تلغراف المدينة اللاسلكي، وهدم بعض المساجد المقامة على القبور، لأنه لم يكن يسعه غير ذلك، والحكمة كانت تقضي بذلك فهو لا يقف أمام التيار، بل يتركه يسير بطبيعته، ثم بعد أن تهدأ العاصفة يعمل فكره لضرب خصومه في الظروف المناسبة، وعند سفوح الفرص الملائمة، وكان أشد الناس على الأخوان: الأمير عبد الله بن جلوي حاكم منطقة الأحساء، فكثيراً ما سمعته يقرع رؤساء بني خالد وآل مرة والعجمان على شدتهم وغلوهم، ويقول: إن حالتهم الأولى- على ما فيها من الشرور- خير من حالتهم هذه، وإن الدين ليس في العمائم، وهو لا يسمح لأحد منهم كائناً من كان أن تمتد يده إلى أحد من أهل الأحساء، وإذا تجرأ أحد فجزاؤه أصرم العقوبات، ولذلك كانوا إذا دخلوا الأحساء للميرة نزعوا عمائهم وقضوا حوائجهم في هدوء وسكون ولقد سمعت الأمير عبد الله بن جلوي وغيره من آل سعود وكبار آل الشيخ ينصحون الملك عبد العزيز بالتبصر في غلو الأخوان وخروجهم عن حدودهم، ولكن الملك كان دائماً يقول: هؤلاء أولادي، وواجبي احتمالهم والتجاوز عن سيئاتهم وخطئهم، وبذل النصح لهم، وإني لا أنسى أعمالهم وأعتقد أنهم حسنوا النية وسينكشف الحق لهم، راجع حافظ وهبة: في قلب جزيرة العرب، ص ١٨٥- ١٩٠.

الذين يسمونهم «الحبان» وهم يعرفون بعمائمهم الكبيرة التي يضعونها فوق كوفية حمراء يسمونها «الغترة»[١] وهي تختلف أوضاعا وحجماً فمن كانت عمامته أكبر حجماً عرف بأنه شيخ من خاصة الأخوان[٢].

والأخوان في بلاد نجد لهم المقام الأكبر والمكان الذي يفوق سواهم من عرب البادية، فهم أصحاب الغزوات المشهورة في حائل والاحساء والحجاز، وكانوا إلى ما قبل بضع سنوات لا يعرفون من الدين إلا أسمه ولكنهم الآن باتوا على معرفة كبيرة بأصول الإسلام وقواعده وأوامره ونواهيه، وإليهم يرجع الفضل في إخضاع الحجاز إلى ملكهم وطرد الحسين وأولاده من الأراضي المقدسة ونشر تعاليم السنة المحمدية في نجد والحجاز على السواء[٣].

---

(١) يذكر الآلوسي أن أهل نجد الحضريون لباسهم الثياب والأقبية والعباءة وأهل العلم منهم يلبسون في رؤسهم العمائم المحنكة وسائر الناس يلبسون العقل (العقال) فوق نحو شمله وفي أرجلهم النعال ويحملون العصا بأيديهم في الغالب، الآلوسي: تاريخ نجد، ص ٤١.

(٢) يذكر الأمير طلال بن عبد العزيز عن الإخوان أنهم كانوا يتعصبون بالعصابة البيضاء تميزاً لهم عن سائر الناس، راجع طلال بن عبد العزيز: صور من حياة عبد العزيز، ص ٣٥.

(٣) أسس الملك عبد العزيز الهجر أي القرى لإقامة القبائل البدوية وتعليمها الدين الإسلامي وكان أولها الأرطوية في بادية مطر عام ١٩١٢ وتبعها عدد من الهجر مثل قبيلة حرب وعتيبة وقحطان وغيرها حتى بلغت سبعين هجرة أو تزيد وسار من فيها إخواناً يتعصبون بالعصابة البيضاء، لا يعملون شيء في وقت السلم سوى الصلاة والعبادة وفي وقت الحرب مقاتلين شجعان في سبيل الله، فهم هجروا البادية حقيقة إلى الله والتوحيد وبمساعدتهم فتح الملك عبد العزيز العديد من مناطق الجزيرة العربية، راجع طلال بن عبد العزيز: المرجع نفسه، ص ٣٤- ٣٥.

في بريدة(*)

مدينة «بريدة» على مسيرة ثمانية أيام في طريق سهلة وكانت أول قرية صادفناها قرية تدعي «العدوة» يحيط بها أراض منزرعة بالغلال وجبال شاهقة الارتفاع ذات منظر ساحر على يمينها ارض رمليه يضرب لونها إلى وهج الذهب تؤلف منظراً يخطف الألباب وحدث أثناء سفرنا أن افتقد أحد رجال قافلة تقدمتنا في السفر ناقة له أثناء الليل فأرسلوا بعض رجالهم للبحث عنها، فعادوا وأخبروا بأنهم لم يعثروا عليها وفي تلك الأثناء حضر بدوي وأبلغهم أنه شاهد ناقة في طريقه وأعطى أوصافها وكانت هي الناقة الضالة. وذكر أنه كان في وسعه أن يقودها معه إليهم لولا خوفه من أن يتهم بسرقتها فشكره صاحب الناقة. وهكذا جد رجال القافلة حتى عثروا عليها قبل أن يصل أمرها إلى ولاة الأمور.

(*) بريدة تصغير برده، وهو ماء لبني ضبينة وهم ولد جعدة بني غني بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان ويوم بريدة من أيامهم في الجاهلية ومن قرى بريده الكهفة والقوارة ووثال والشقة والبصة والعيون والقرعاء ووادي عنيزة وهي قري كثيرة النخل والأشجار والثمار والعيون والآبار، راجع ياقوت: معجم البلدان، جـ١، ص ٤٠٦؛ الآلوسي: تاريخ نجد، ص ٢٣١.

فاستخلصت من ذلك ما أيد لي أمانة القوم وانعدام حوادث السرقة انعداماً باتًا في قلب نجد[1].

ووصلنا إلى بريدة بعد مسيرة عدة أيام. صادفنا نحو أربع قرى هي «الكهفة[2] والقوارة ووثال والشقة» وينزل في ثانيتها بعض الأخوان المتحضرين منذ زمن بعيد، وبجوار البلدة الرابعة جبل يستخرج منه الملح دون أن يدفع عنه الأهالي ضريبة أو ثمنا. وكان أمير بريدة قد بلغه خبر قدومنا وهو يدعي مبارك بن مبيريك فخف لاستقبالنا باسم جلالة الملك ابن سعود استقبالاً هو غاية في الود ونهاية في الكرم، وأنزلنا في داره ضيوفاً كراماً[3].

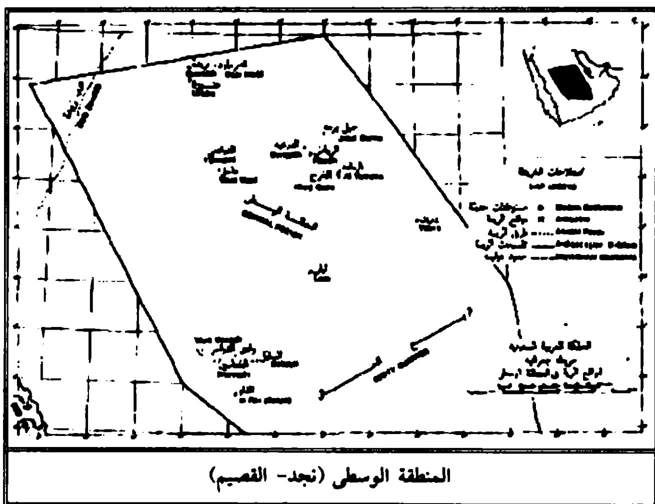
و«بريدة» هذه تقع في سهل رملي ذات مبان متعددة كحائل تحيط بها المزارع وأشجار النخيل ويمتاز ثمرها بقصره وسمنته والأهالي هناك

---

(١) حضر بعض الرجال من قبيلة بني مرة ذات يوم إلى القصر في الرياض للغذاء والكساء، وغادروا بعد أن حصلوا على نصيبهم، وفي طريقهم إلى الحسا صادفوا قطيعاً من الجمال فأخذوه؛ فرفع الراعي الأمر إلى السلطان في الرياض، فأرسل نجاباً إلى ابن جلوي، وحينما وصل النجاب أرسل الأمير أربعمئة من رجاله، مئة رجل في كل إتجاه- الشمال والشرق والجنوب والغرب- للبحث عنهم والقبض عليهم، وفي أقل من أربع وعشرين ساعة قبض عليهم، راجع أمين الريحاني: في قصر السلطان عبد العزيز لمحات من حياة مواطن أو ضيف لسلطان عربي، ص٣٤٥.

(٢) الكهفة: تقع جنوب شرقي حائل على بعد ١٥٠ كيلومتراً، راجع ضاري بن فهد الرشيد، نبذة تاريخية عن نجد، ص ٢٠٧ نقلاً عن حمد الجاسر: المعجم الجغرافي: شمال المملكة، ج٣، ص ١١٥٢.

(٣) ذكر البسام أن الأمير عبد العزيز بن مساعد بن جلوي مشى من إمارة بريدة بأمر الإمام عبد العزيز سنة ١٩٢٣م، وإتجه إلى حائل ومعه أهله و ١٥٠ مطية وحط مكانه في إمارة بريدة ابن مبيريك، راجع البسام: تحفة المشتاق، ص ٤٢٣.



المنطقة الوسطى (نجد- القصيم)

يجففونه ويسمونه «اليبيس» وأحسنه ماتنبته نخيل «عنيزة» ومع أنه شديد الحلاوة لذيذ الطعم إلّا أنه غير سهل الهضم.

عنيزة «باريس نجد»

ويعدون بريدة عاصمة لسائر القرى التي تحيط بها وهي في جملتها تدعي «القصيم»[1] وأهم مدنها «عنيزة»[2] وهي التي أسماها الشاعر الأشهر

(١) تقع منطقة القصيم في الجزء الأوسط الشمالي من المملكة العربية السعودية ويخترقه وادي الرمة وتبلغ مساحة القصيم ما يقرب من ٨٠,٠٠٠ كم٢، ومن أهم مدنها بريدة وعنيزة والرس، وكلمة القصيم تعني في اللغة كسر الشيء ودقه والقصيم هو منبت الغضا وهو الشجر الملتف، محمد عباس أسكوبي وآخرون: القصيم تراث وحضارة، ص و، ١؛ والقصيم يقع بين جبل شهر شمالاً والوشم جنوباً ويخترق وادي الرمة أكبر أودية نجد وهو إقليم غني بمياهه الجوفية وأبرز بلدانه بريدة وعنيزة =

أمين الريحاني عند زيارته لها «باريس نجد» ذلك لأن منازلها مؤلفة من

= والرس والخبراء المذنب والنبهانية والهلالية ويخترق هذا الإقليم طريق الحج القادم من البصرة، ويبلغ طول القصيم أكثر من مائة ميل، كما توجد أكثر من خمسين بلد بين كبيرة وصغيرة، ويمتاز الجزء المرتفع من القصيم بغنى مراعيه والآبار التي توجد في أكثر من أربعين بلده، راجع حافظ وهبة: في قلب جزيرة العرب، ص ٣؛ مي بنت عبد العزيز العيسي: الحياة العلمية في نجد، ص ٦.

(٢) مدينة عنيزة ثاني مدن القصيم في إقليم نجد بعد بريدة، وهي في الوسط الشمالي من شبه جزيرة العرب وكانت في الجاهلية تعد من بلاد بني أسد وهي مورد للمياه والرعي ولم تصبح مقر للإستيطان الدائم إلا في الإسلام عندما إستقر فيها عبد الله بن عامر بن كريز القرشي وكان أميراً للبصره وأسس فيها العيون ومزارع النخيل وأقام أول تجمع سكاني عام ٦٣٠هـ ويقال أول من سكنها زهري بن جراح الثوري؛ خالد محمد عباس أسكوبي وآخرون: القصيم تراث وحضارة، ص ٢١، وقال الشيخ محمد بن ناصر العبودي عن مدينة عنيزة: بضم العين فنون مفتوحة فياء ساكنة فزاي مفتوحة فتاء مربوطة، هكذا ينطق به في القديم وفي الحديث لم يتغير الإسم؛ إلّا أن العامة يسكنون العين في أوله مع وجود ما يشبه الألف اللينة قبلها في النطق، هي المدينة الثانية في القصيم، كانت في وقت من الأوقات السالفة أكثر مدن القصيم سكاناً، وأقواها تجارة، وأرقاها مدنية، حتى سماها امين الريحاني (باريس نجد)، وذلك لما يتمتع به أهلها من لطف المعشر، ولين الجانب للأصدقاء والغرباء المسالمين، إلى جانب ما عرف عنهم من حماية العرين والصبر في الذود عن الدار والذب عن الجار، وعنيزة هي مدينة الأدب والتاريخ في القصيم، وهي الأم التي أنجبت الكثير من الشعراء والمؤرخين، ولا زالت كذلك، أما عمارة عنيزة: فعنيزة كانت روضة ينتهي إليها سيل بعض الأودية الصغيرة، إستخرج ماءها محمد بن سليمان بن على بن عبد الله بن عباس وستأتي النصوص التي تدل على قدم تسمتها، وبقي أن نعرف متى عمرته عنيزة فأصبحت قرية ثم مدينة، والواقع أن المستفيض لدي عدد من علماء القصيم أن إبتداء عمارتها كان في القرن السادس أو السابع، وقد سجل عدد منهم ذلك ولكن لم يذكر أحد منهم المصدر الذي إعتمد عليه في رأيه، ولا غرابة فتلك كانت سمة التأليف ونهج المؤلفين في ذلك العصر، ولكنني وجدت نصا من أوائل القرن التاسع يذكر عنيزة بأنها قرية وسوف أورد كلام علماء القصيم ثم أذكر النص وما بعده =

ثلاث طبقات على نسق مبان المدن المتحضرة وأهل القصيم ولا سيما سكان بريدة وعنيزة يعدون أغني أهل نجد جميعاً وأكثرهم تحضرا وأنشطهم حركة وأعراضهم بأساليب التجارة ولقد رأيت كثيرين منهم في الشام ومصر يتبادلون المتاجر فيجلبون إلى مصر مثلاً الخيل والإبل والماشية والجلود والسمن، ويبتاعون الأقمشة وشتى أنواع المصنوعات والسلع، بل منهم من له شأن تجاري يغبط عليه في أسواق الهند ومدن الحجاز[1]، وكان ذلك سبباً في تطور أخلاقهم وعاداتهم وميلهم إلى الأخذ

= بإذن الله، قال الشيخ ابن ضويان في تاريخه: أول من سكن عنيزة وأستوطنها من بني خالد يسمون الجناح، نزلوا على بئر تسمي «أم القطا» هي الآن في العبارية، وسميت المحلة بإسم القبيلة، وكان ذلك في حدود المئة السادسة من الهجرة، وبعد سبعمائة من الهجرة سكن زهير السبيعي العامري في موضع عنيزة وكثر جيرانه ولم تزل في زيادة إلى أن ملكت محلة (الجناح) وصار إسم الجميع عنيزة على الإسم القديم، وقال الشيخ محمد بن عبد العزيز بن مانع: لقد أنشئت عنيزة سنة ٦٣٠ تقريباً؛ لأنه معلوم بما إستفاض عند أهل القصيم بأن أول من سكن عنيزة هو زهري بن جراح الثوري، وتحققنا بأن الموجودين الآن هم من ذريته، إذ أغلبهم بينهم وبينه ثلاثة وعشرون أباً، وفي إعتبار أهل النسب يجعلون لكل أب ثلاثين سنة في الغالب ،أما إمارتها فقد مضي عليها قريب من مئتين وخمسين سنة وهي تبع للجناح ليس فيها أمير، ولا يحيط بها سور واحد، والجناح ثلاث دير: الضبط ديرة، والخريزة ديرة، ولها سور خاص، والمليحة ديرة ولها سور خاص وكذلك العقيلية لها سور خاص، وأصبحت هذه القرى كلها بلدة واحدة يقال لها (عنيزة)، وأول من أوجدها عقيل بن إبراهيم بن موسي بن محمد بن بكر بن عتيق بن جبر بن نبهان بن مسرور بن زهري بن جراح، وقال مقبل الذكير في تاريخه في حوادث ١٠٩٧هـ: وفي هذه السنة خرج الشريف أحمد بن زيد إلى نجد في شهر ربيع الآخر ونزل عنيزة في القصيم وكانت يومئذ كغيرها من بلدان نجد منقسمة من حيث النفوذ إلى أربعة أقسام، راجع فيصل بن سليمان الخريشي: عنيزة تاريخ ووثائق، الرياض الطبعة الأولى ٢٠٠٤م، ص١٦-١٩.

(١) أهل القصيم وشقرا والزلفي أنشط أهل نجد في التجارة معروفون في الهند ومصر والشام والعراق، راجع حافظ وهبة: في قلب جزيرة العرب، ص ٧.

بأساليب المدنية وسهولة الطباع وعدم التعصب لمذهب دون آخر[1]، زد على ذلك أن في وسع الغريب عن ديارهم أن يفهم لهجة كلامهم بسرعة فإذا أضاف بعضهم غريباً متحضراً أدهشه مايراه على موائدهم من أصناف الأطعمة ولوازم المائدة مما يجعله لا يصدق أنه في قلب نجد؟ كما أني لاحظت بعضهم يدخن سرًّا. وعلى ذكر الدخان الذي يسمونه النجديون «التتن» أقول أنه لا يوجد له أثر في نجد فإذا عثر عليه عوقب صاحبه كما يعاقب محرز الحشيش والمخدرات السامة[2] في مصر وعلى ذكر سكان بريدة فيما أسلفنا نذكر أن إبن سعود يختار عادة من مفكريها ورجالها المتعلمين من يمثلون بلاده في الخارج أمثال حضرة الشيخ فوزان السابق معتمده في مصر والشيخ ياسين الرواف معتمده في سوريا.

---

(١) أهل الرياض أرق بكثير من أهل الدواسر الذين لم يفارقوا بلادهم ولم يعرفوا شيء عن أحوال العالم الخارجي، ولذلك فالحضر أهل تفاخر فمثلاً أهل القصيم يفضلون أنفسهم على سائر سكان نجد بالعلم والمعرفة وسماحة الخلق، والإحاطة بأحوال العالم، حافظ وهبة: المرجع نفسه، ص ٦.

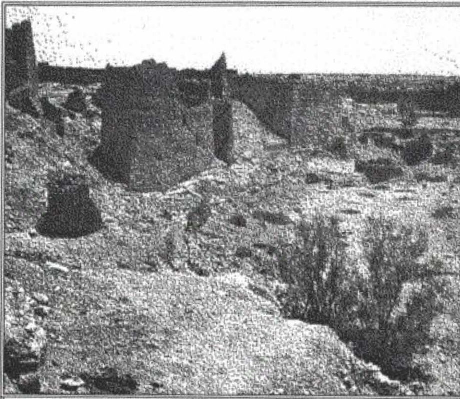
(٢) ذكر عبد الله غازي في كتابه مرسوم عدم شرب الدخان وجاء كالتالي «بلاغ عام في عدم شرب الدخان» بسم الله الرحمن الرحيم تعلن الحكومة أن أهم ما يجب على الجميع الحرص عليه هو تطهير هذا البيت من جميع ما يدنسه وعمل كل ما فيه مصلحة العبد في أمرا دينهم ودنياهم وأبدانهم، وعلى ذلك فجميع المسكرات ممنوع إستعمالها منعاً باتاً ومن ثبت أنه إستعملها أقيم عليه الحد الشرعي، وكذلك الدخان فلاشك في تحريمه لأنه فيه نوع مما يسكر وأنه مضر للبدن وتبذير للمال وعليه فكل من شوهد وهو يشربه فيجازي على الوجه التالي:

١- يسجن الشارب لأول مرة ثلاثة أيام وبعد إنتهائها يقوم بدفع مجيدي واحد يسلم للسجان عند خروجه.

٢- إذا شوهد الشارب للمرة الثانية يحبس عشرة أيام ويؤمر بدفع عشر ريالات مجيدية يسلمها إلى البلدية بمقابل وصل يأخذه منها.

٣- إذا شوهد وهو يشرب الدخان للمرة الثالثة يضاعف له الجزاء والله يتولي الجميع بتوفيقه، راجع عبد الله غازي: أفادة الأنام بتاريخ بلد الله الحرام (خزانة التواريخ =

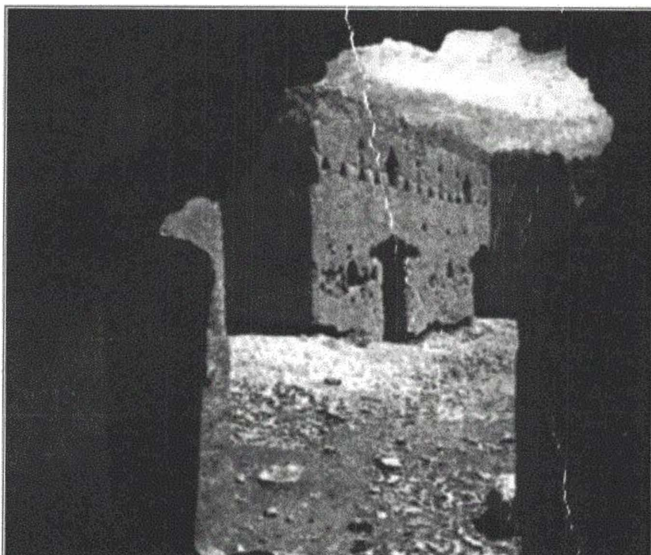
في الرياض



قصر الفصاصمة بالدرعية

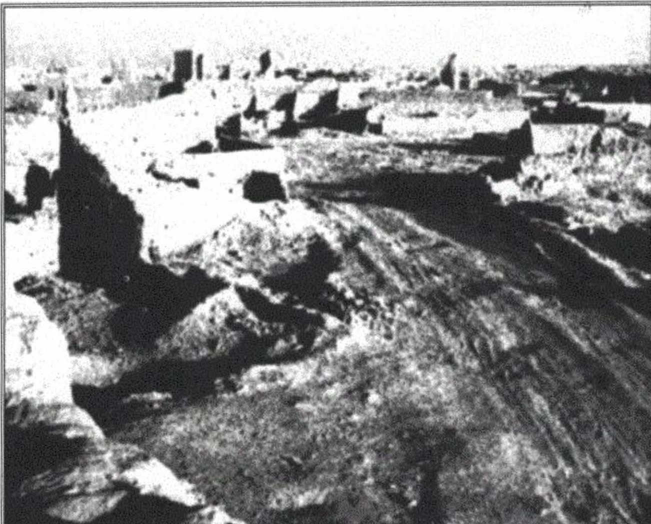
مضينا في «بريدة» ثلاثة أيام ثم استأنفنا السفر إلى «الرياض» عاصمة نجد. وللوصول إليها طريقان: طريق «الوادي» وطريق «المستوي» وثانيهما أقصر من الأول. وحدث في الأثناء أن أذيع خبر عودة الملك عبد العزيز من

= النجدية ج١٠)، ص ٣٣٣.



قصر سعد بالدرعية

المدينة المنورة إلى عاصمة نجد للمرة الأولى بعد فتحه الحجاز، فاخترنا طريق المستوي كي نعجل بالوصول إلى الرياض لنشهد حفلات استقباله وقد قطعنا اليوم الأول في طريق رملي ذو هضاب رملية ووصلنا إلى قرية تدعى «أشيقر» بعد مسير أربعة أيام ومن هناك علمنا أن جلالة الملك وصل في موكب ضخم مؤلف من ست وعشرين سيارة في ذلك اليوم ولم أر ما يستحق الذكر خلال هذا الطريق سوى أن أهل القرى هناك يأكلون الجراد وهم ينتظرون مواسمه كما ينتظر سكان مصر موسم السمان. واغرب من ذلك أنهم يتفاءلون بالخير إذا اقبل موسمه بقدر ما يتشاءم منه أهل مصر ويتسلح الفلاحون المصريين لمطاردته. ومما يتحدثون عن فوائده في نجد



أطلال حي الطريف بالدرعية ومنها أنطلقت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب

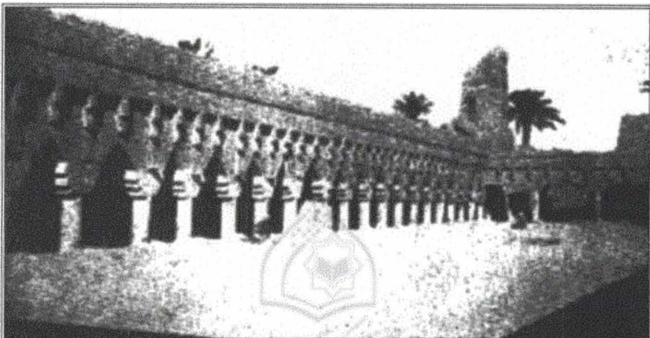
أنه مغذ كالشهد شاف للعلل كالترياق حتى بلغت بهم شدة الشغف لأكله أن يتخذوا منه قديداً ولا أدري أهم يقددونه بطريقة التعقيم أم بطريقة أخرى لا تزال غائبة عن معامل برشلونة. وقد قص عليَّ أحد رجال القافلة أن بعض كبار التجار النجديين في مصر لا يزالون على عهدهم بقديد الجراد، يرسل إليهم في أكياس هي عندهم أعز من أكياس الحلوى التي تهدى في الأفراح[1].

---

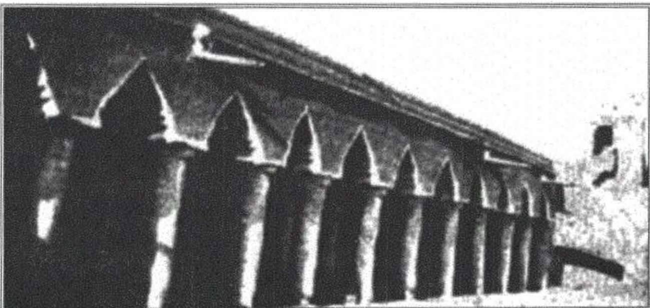
(١) يذكر الشيخ محمود شكري الآلوسي في كتابه تاريخ نجد أن أهل نجد عموماً يأكلون الجراد بل هو أحسن ما يدخرونه لأقواتهم وألذ ما يصطفونه لأنفسهم، هم وأهل الأحساء ويطبخون الجراد بالملح ثم ييبسوه ويدخروه، راجع الآلوسي: تاريخ نجد، ص ٤٠.



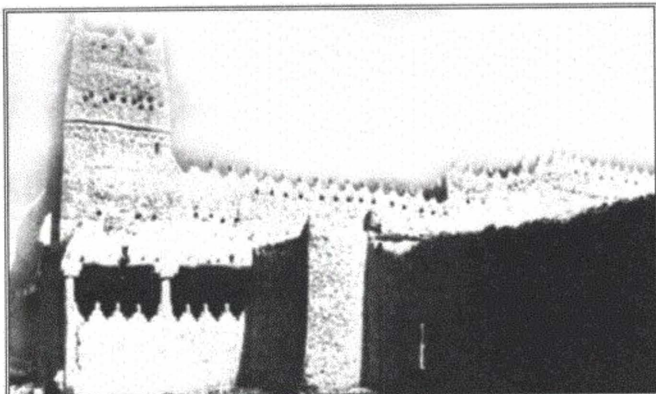
مدينة الرياض أيام زمان



المسجد الجامع بالرياض



مسجد آخر بالرياض



قصر الأمير محمد بن عبد الرحمن في عتيقة إحدى ضواحي الرياض أنشأ سنة ١٣٤٠هـ

ومررنا على بلدة «شقراء» وهي كائنة في وسط أقليم يسمى «الرس»[١] وهي ذات تجارة متوسطة ويعدونها عاصمة ذلك الإقليم ومررنا كذلك على بلدة تدعي «البره» إلى أن وصلنا إلى مدينة «الدرعية»[٢] بعد مرورنا على اطلال قرية يسمونها «العيينة»[٣] التي نشأ منها «مسيلمة الكذاب» الذي ادعي النبوة في عهد النبي ﷺ.

---

(١) الرس: بفتح أوله والتشديد وهو بمعنى البئر أو المعدن أو إصلاح ما بين القوم ويروي انه قرية باليمامة وقال ابن دريد انه واديان بنجد، راجع ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٣ ص ٤٣-٤٤.

(٢) الدرعية: نشأت بلدة الدرعية في عام ٨٥هـ/ ١٤٤٦م شمال وادي حنيفه عندما إنتقل مانع بن ربيعه المريدي أحد أجداد آل سعود من شرقي الجزيرة العربية إلى وسطها، حيث منحه ابن عمه ابن درع وكان يسكن منطقة حجر اليمامه والجزعه، موضعين يقال لهما غصيبه والمليبيد، اللذين سميا فيما بعد بالدرعيه وأصبحت مركزاً لإمارة آل سعود، راجع المملكة العربية السعودية في مئة عام، ص ١٦.

(٣) العيينه: من إقليم العارض الذي يقع وسط نجد ويذكر أن حسن بن طوق أشترى =

و«الدرعية» مدينة أثرية كانت عاصمة لنجد وفيها نشأت أسرة آل سعود ومنها ظهرت الدعوة الوهابية وحولها دارت الحرب بين جنود ابراهيم باشا والي مصر وبين الوهابيين ولا تزال آثار مدافعه بادية للأنظار في خرائب مدينة الدرعية القديمة.

عاصمة نجد تستقبل ملكها

بلغنا «الرياض» في صباح اليوم الثامن وكانت المدينة قد لبست



منظر داخلي لقصر الأمير محمد بن عبد الرحمن في الرياض

= أرض العيينة من أل يزيد من بني حنيفه وعمّرها واستوطنها وتداول حكمها ذريته وذلك في منتصف القرن التاسع، راجع ابن بشر: عنوان المجد، جـ٢ ص ١٨٩.

زخرفها وانتشرت معالم الابتهاج بوصول مليكها إليها بعد فتحه الحجاز وقد امتلأت بالوفود من أقصى أنحاء نجد للترحيب بمقدمه[1].

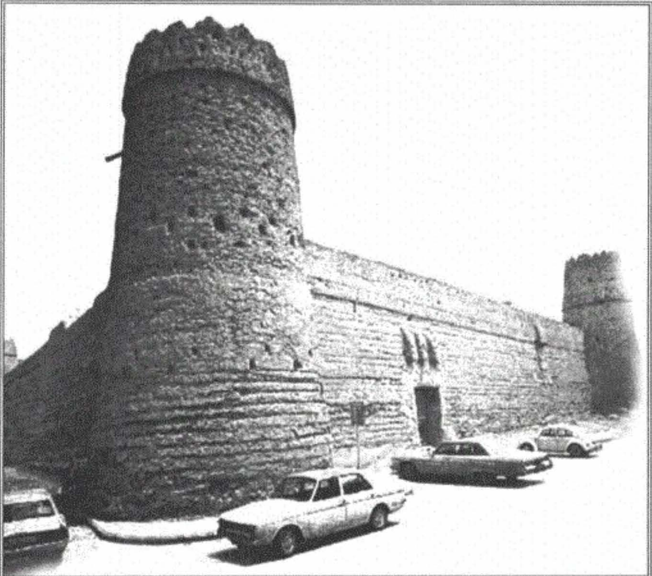
وكان جلالة الملك قد علم بقدومنا فأرسل مندوباً عنه لاستقبالنا بباب المدينة وسار بنا إلى قصر جلالته وقد دخلنا عليه لأول مرة فإذا به يستقبلنا استقبالاً وديًّا كأننا كنا على صداقة قديمة بيننا وبين جلالته ولما علم بغرضنا من رحلتنا سر بذلك وأظهر عطفه على رغبتنا في استطلاع أحوال شبه الجزيرة العربية وأمر بإعداد منزل خاص لإقامتنا وطلب إلينا أن نحظي بمجلسه في أي وقت شئنا ومن ثم أخذنا نتعرف بكبار ذوي الشأن في عاصمة نجد لنستطلع ما حل ودق من شؤون البلاد جملة وتفصيلاً. وبدأنا نجمع المعلومات الدقيقة عما كان قبل اعلان الحرب على الهاشميين وفي خلال تلك الحرب وما جرى بعد ذلك من التطورات حتى الآن مما سنأتي عليه.

---

(١) راجع عبد الله غازي: إفادة الأنام بتاريخ بلد الله الحرام، ص ٣٥١.

وصف العاصمة النجدية

القصور الملكية



قصر المصمك بالرياض الذي فتحه الملك عبد العزيز سنة ١٣١٩هـ
كأول لبنة في تأسيس المملكة العربية السعودية

«الرياض» تعد أكبر مدن نجد واعظمها شأناً باعتبار أنها عاصمة الديار النجدية ذات مبان متعددة بينها عدة عمارات كبيرة أكثر شبها بمنازل أعيان أقاليم القطر المصري، أما قصور أمراء الأسرة المالكة فتمتاز عن سائر مباني الرياض باتساعها وبهاء شكلها ويحيط بالمدينة سور فخم له عدة أبواب كثيرة على مثال أبواب المدن الشرقية في سالف



جزء من مدخل قصر المصمك

الزمان وهي تقفل عند اللزوم. وتحيط بالعاصمة المزارع وأشجار النخيل وهناك مزرعة خاصة بأمراء البيت المالك لم يستوقف نظري فيها سوى بعض شجيرات من الورد وأخرى من القطن، ولعل في زرع شجيرات القطن معنى خاصًا يجول في نفس ابن سعود هو ذات المعني الذي جال في نفس محمد على باشا والي مصر يوم أمر بزرع بعض شجيرات من القطن للمرة الأولى في مصر في حديقة قصره، فلما أعجبه شكلها وسره تفتح لويزات القطن وظهور خيوطها البيضاء وما كان منه بعد ذلك حيث أمر بتعميم زراعته في سائر بلاد القطر فكان ذلك سبباً في رخاء البلاد وسعادة العباد. على أن تحقيق هذه الأمنية السعودية قد ينم على مدى

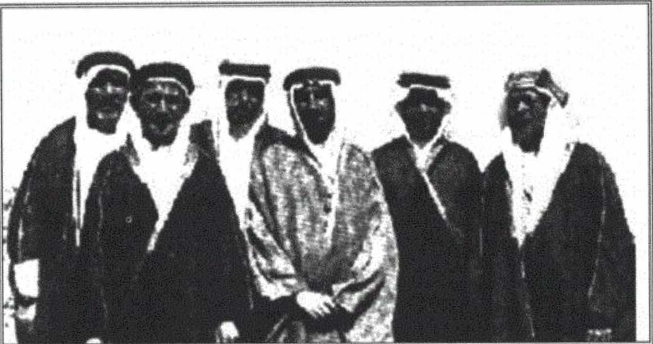
الزمان إذا أعدت الأراضي التي تصلح للزراعة ومهدت لها وسائل الري[١].

وفي الرياض عدة مدارس دينية أشبه بكتاتيب المساجد عندنا يدخلها الصبيان فيتعلمون مبادئ القراءة والكتابة ويحفظون القرآن عن ظهر قلب ولا يتبحر في العلوم الدينية إلا النادر من الذين يريدون الانقطاع لخدمة العلم والدين فيلقنون تفسير القرآن وأحكام الشرع ومن هؤلاء يتخرج أئمة المساجد ووعاظها[٢]. وفي الرياض ستة مساجد خالية من مظاهر الزخرف

---

(١) ذكر كوروين في مذكراته أنه سأل الملك عبد العزيز عن الزراعة فقال أنه لديه في المملكة نسبة كبيرة من المواطنين المنحدرين من أصول أفريقية ولكن ليس لهم خبرة في الزراعة وإنما يمكن الإستفادة منهم في العناية بقطعان الماشية أما الخيول فلا يمكن ذلك، وأن جلالته لم يصل بعد إلى معرفة ما يمكن زراعته على نطاق واسع هل يمكن أن يكون القطن أو القهوة أو الشاي..؟ أن الشيء الوحيد الذي يمكن التأكد منه هو الكمأة، أندريه كابسكي: زيارة بولندي مسلم إلى المملكة في عام ١٩٣٤، ص ٢٦٤.

(٢) ذكر الشيخ عبد الله بن ابراهيم السليم نبذة عن التعليم في عهد الملك عبد العزيز قال فيها: سأتحدث عن نقطة واحدة تتعلق بجانب واحد من جوانب أعماله، الجليلة، ألا وهو التعليم في مبدأ مراحله الأولية، حيث قد تشرفت بأن أكون مديراً لمدرسة في عهد جلالته، يرحمه الله وأن أحظي بشيء من نصائحه وإسترشاداته؛ فعندما أصدر جلالته أمره الكريم بفتح تسع مدارس في الملحقات في مكة والمدينة وجدة والطائف والرياض وبريدة وعنيزة والحساء وحائل، أعلنت مديرية المعارف العامة في صحيفة أم القرى الأمر الكريم، وبأن من فيه كفاءة من أهالي تلك البلاد ويرغب العمل في المدارس فعليه أن يتقدم بطلبه لمديرية المعارف العامة في مكة المكرمة، وكان مدير المعارف آنذاك السيد طاهر الدباغ، فتقدم من تقدم من أهالي البلاد المشار إليها، ولم يتقدم من أهالي بريدة أحد، وكنت في ذلك الوقت مدير مدرسة أهلية أعلم فيها القرآن الكريم والتوحيد ومبادئ التجويد والخط والإملاء والحساب كما يوجد في بريدة عدد من الكتاتيب، ولكن أكثرها مقصور على تعليم القرآن فقط وعلى الطريقة القديمة والدراسة في ذلك الوقت قاسية جدًا، والإقبال =



وزراء الدولة: من اليسار إلى اليمين: خالد الحكيم، رشدي ملحس، الدكتور محمود حمودة، يوسف ياسين، خالد الهود، عبدالوهاب النايب.

والفرش بغير قباب وأغلبها بغير سقف وتقام صلاة الجماعة في أيام الجمع والعيدين في مسجد واحد. ويبلغ اهتمام بعضهم بسماع الخطبة المنبرية أن

= عليها من الصعوبة بمكان؛ لما في الناس من الحاجة، ويلاقون عنت الرحلات والكفاح في طلب لقمة العيش سواء في ذلك الشيوخ أو الشباب الذين غالباً ما يصحبهم آباؤهم للتدريب على المسؤوليات البيئية والاجتماعية والتعليم آخر ما يفكرون فيه؛ لأنهم في جهاد مرير مع الزمن لصعوبة الحصول على الأشياء الضرورية. وبعد تقدم أحد من أهالي بريدة بطلب إدارة مدرستهم عينت المعارف رجلاً فاضلاً من أهالي مكة، وبمجرد وصوله إلى بريدة لفتح مدرستهم إجتمع طلبة العلم وأعيان المدينة وقاضيهم فكتبوا لجلالة الملك عبد العزيز يرحمه الله، كتاباً يلتمسون فيه إعفاءهم من فتح المدرسة؛ وذلك لوجود المدارس عندهم، فكتب إليهم جلالته أما وقد فتحت فلا يمكن إغلاقها بعد فتحها، وجلالته يعلم أن طلبهم عدم فتحها ليس رغبة عن العلم ولكنه خشية أن يشوب التعليم شيء.

وهذه النقطة هي التي جعلت جلالته يعمل على فتح المدارس وتعميمها في جميع البلاد؛ لأنها هي التي بواسطتها يقضي على الخرافات، وينفي عن التوحيد ما علق به من أدران الجاهلية، وكان يرحمه الله تعالى يجل العلماء ويحترمهم، ويكرمهم غاية =

يبكر في الحضور إلى المسجد ليأخذ له مكانا فيه خشية الزحام فإذا طرأ

= الإكرام، وقد كان لجلالته الفضل الأكبر في تحصيل من حصل من طلبة العلم؛ لأنه يرحمه الله في كل مناسبة وفي كل إجتماع وربما سمي بعض طلبة العلم بحضور من حضر مجالسه التي تجمع كثيراً من طبقات الشعب قائلاً: أنت يا فلان عليك مسؤولية كبيرة أمام الله وأمام إخوانك وأمام إمامك؛ أن ترشد الناس، وتبين لهم ما هم بحاجة إليه من أمور دينهم ودنياهم، فكانت موعظه وإرشاداته أكبر حافز لطلبة العلم على أن يتزودوا من العلم ويقووا معلوماتهم، وربما سأل بعضهم عن مسائل يعلمها جلالته، ويعلم أن المسؤول عنها يعلمها؛ يحفزه وغيره على الإستزادة من العلم حذراً من أن يسأل عن شيء لا يستطيع الإجابة عليه فهو بذلك يرحمه الله أستاذ الأساتذة، ولنرجع إلى تكملة الحديث عن مدرسة بريدة، فأجاب الملك عبد العزيز يرحمه الله أهالي بريدة أنه لا يقصد من فتح المدرسة إلا نفعهم وأولادهم وتعليمهم ما ينفعهم في أمور دينهم ودنياهم، وأن عليهم أن يختاروا من تطمئن إليه نفوسهم في تعليم أولادهم، فشكروا جلالته على ذلك، وإجتمعوا ثانياً، وتبادلوا الآراء فيمن يرفعونه لجلالة الملك بطلب تعيينه مديراً لمدرستهم فوقع إختيارهم عليَّ فكتبوا لجلالته بذلك فأصدر أمره الكريم إلى مدير المعارف العام يأمره بتعييني مديراً لمدرسة بريدة، وذلك في آخر سنة ١٣٥٦هـ، فأبرق إلى مدير المعارف بصدور الأمر العالي بتعييني مديراً لمدرسة بريدة وأن عليَّ أن أتسلم المدرسة وأخبره بذلك برقيًّا، فاستلمت المدرسة، وأبرقت لمدير المعارف بذلك وكانت الدراسة آنذاك ثلاث سنوات تحضيرية على ما هو متبع في الحجاز في النظام الصادر بتاريخ ١٣ رجب ١٣٤٧هـ رقم ١٤٦، ثم بعد ذلك صدر نظام المدارس الأميرية بالأمر العالي برقم ١٤/١/١٣٥٨هـ وتاريخ ١٥/٩/١٣٥٨هـ، وفيه مدة الدراسة في المدارس الإبتدائية ست سنوات وفي المدارس الثانوية ست سنوات، وفي المعهد العلمي السعودي خمس سنوات، وتقبل المدارس الإبتدائية من أكمل السادسة من عمره ولم يتجاوز الثانية عشرة، ويقبل في المدارس الثانوية من أتم الدراسة الإبتدائية، ولم يتجاوز عمره ستة عشر عاماً، والطلاب الذين يأتون من الكتاتيب أو من المدارس الأهلية أو بعد دراسة خصوصية يقبلون في الفصول التي تؤهلهم لها معلوماتهم بعد إختبارهم من هيئة المدرسة، سارت المدرسة سيراً نود أن يكون أحسن مما سارت عليه، وبعد أن تخرج الفوج الأول منها، ووجد مجالاً للعمل بأن =

عليه مايستوجب مبارحته المسجد وضع عصاه أو أي شيء آخر في مكانه

= تلقفتهم الدوائر الحكومية، فتعينوا برواتب لا بأس بها في ذلك الوقت عند ذلك أقبل الناس على التعليم إقبالاً منقطع النظير، وقفز عدد الطلاب إلى عدد كبير، هذا؛ والرياض حتى الآن لم تفتح مدرسته المقررة له للسبب الذي نوهت عنه إلا ما كان من مدرسة الأمراء ومعهد الأنجال ومدرسة الأيتام التي في المربع، ومدير مدرسة الأمراء آنذاك فضيلة الشيخ عبدالله خياط، ومدير معهد الأنجال الأستاذ عثمان الصالح، ولما قام جلالة الملك عبد العزيز، يرحمه الله بزيارة القطر المصري، وذلك في ربيع الأول سنة ١٣٦٤هـ، وعاد بسلامة الله بعد رحلته أقام لجلالته إخواننا من أهالي جدة ومكة حفلاً رائعاً أشتمل على الزينات والأقواس والفرح بمقدمه الميمون، وعندما أراد التوجه إلى الرياض أراد أهالي الرياض أن يعملوا مثل ما عمل إخوانهم من أهالي جدة ومكة، ولكنهم لم يجرؤوا أن يعملوا ذلك دون أخذ موافقة منه، فإستأذنوا منه فشكرهم على ذلك وطلب منهم أن يضعوا المبلغ الذي يريدون أن يمولوا به هذا الاحتفال عند أحدهم وعند وصوله إليهم يخبرهم عما يصرف فيه، لجمع المبلغ، وعندما وصل جلالته الرياض بسلامه الله سألوه عن الجهة التي يصرف لها هذا المبلغ، فقال جلالته: أرى أن يصرف هذا المبلغ في مبنى مدرسة لأولادكم، وهذه قطعة الأرض الموجودة في البطحاء أقيموا عليها مبناها، وتسمي المدرسة الأهلية؛ لأنها بنيت بتبرعات الأهالي وهي المدرسة التذكارية التي أسست تخليداً لذكري عودة جلالته من القطر المصري، وبعد إنتهاء عمارتها ظلت سنتين لم تفتح، وقد زار الملك عبد العزيز بريدة سنة ١٣٦٦هـ، وخرجنا بطلاب مدرسة بريدة لإستقباله، وألقي طلبة المدرسة في مخيمة أناشيد الترحيب وبعض الكلمات، فأعجب جلالته بذلك ، ورأينا السرور في وجهه، وأمر جلالته للذين ألقوا الكلمات بمكافأة، كان لها أكبر الأثر في نفوسهم، وقد ألقيت كلمة ترحيبية في مأدبة العشاء التي أقامها على شرفه سمو الأمير عبدالله بن فيصل الفرحان أمير بريدة في قصر الأمارة. ولقد زرت جلالته في غد وصوله في مخيمه في موضع يقل له: النازية شمال شرق المباني آنذاك، وسألني عن المدرسة، فأخبرته أنها - ولله الحمد- حسب توجيهاته وإرشاداته قد سارت على ما يريده لها، فحثني على الحرص على الطلاب وتثبيت العقيدة الإسلامية في نفوسهم وعلى إقامة الصلوات في أوقاتها وأن يكون المعلمون مرشدين بالفعل =

ومضي إلى سبيله حتى إذا أذن للصلاة عاد إلى مكانه دون أن يرى من يجرؤ

= قبل الإرشاد بالقول، وأن يتمسكوا بالأخلاق الفاضلة، وكان هذا الكلام بمحضر من العلماء وطلبة العلم ومن بصحبته من رجال الدولة، وفي أثناء حديثه عن العقيدة الإسلامية قال جلالته مخاطباً من بحضرته من العلماء وطلبة العلم الذين جاؤوا للتشرف بالسلام على جلالته: نحن ولله الحمد كبار في أعين الأجانب، وحكي يرحمه الله حكاية عن روزفلت الرئيس الأمريكي أنه يقول له: إن الكوارث الطبيعية والأوبئة المرضية نراها تفتك بالعالم وهي مصروفة عنكم، وهذا راجع إلى دينكم وهو يرحمه الله في كل مناسبة يأمر بالتمسك بالدين والمحافظة عليه لانه هو جلالته رأى من تمسكه بالدين وتحكيمه الكتاب والسنة العجائب. وبعد أن رجع جلالته إلى الرياض بعد زيارته للقصيم إتصل به بعض الموظفين ملتمسين من جلالته فتح المدرسة الأهلية، فلما إجتمع عنده العلماء والأعيان قال لهم: الناس يأتون إلى الرياض لخدمتنا، ولا يليق بنا أن نهمل أولادهم بدون تعليم، والمدرسة قد إنتهت عمارتها منذ سنتين، ونريد فتحها، فإختاروا من ترون لإدارتها، وكان ذلك مطلع ١٣٦٧هـ، فبعد تبادل الآراء وعلمهم بنجاح مدرسة بريدة وكون مديرها من آل سليم التي عرفت ولله الحمد بسلام العقيدة ومحبتها للبيت المالك طلبوا من جلالة الملك نقلي من مدرسة بريدة إلى مدرسة الرياض الأهلية، فصدر الأمر الكريم إلى مديرية المعارف بنقلي من مدرسة بريدة إلى مدرسة الرياض الأهلية فسافرت إلى الرياض وفتحتها بحفل كبير حضره جلالة الملك والعلماء وأعيان أهل الرياض ورؤساء الدوائر، وبادر طلبة العلم ورؤساء الدوائر وعامة الناس بإلحاق أبنائهم بالمدرسة، لأنهم بأمس الحاجة إليها وسارت سيراً حسناً بما لقيته من قبول وتشجيع، ولا سيما من سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم، يرحمه الله وإبنيه المكرمين وسماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، فقد ألحقوا أبناءهم بالمدرسة وحيث إن من التحق بالمدرسة قد أتي من الكتاتيب ومن الدراسة الخاصة متفاوتون في المعلومات؛ صنف الطلاب إلى ستة أصناف من السنة الأولى حتى السنة السادسة، كل حسب مؤهله وفي الإختيار النهائي أخذت المدرسة الأهلية الأولية من بين مدارس المملكة، فكتب إلى فضيلة الشيخ محمد بن مانع مدير المعارف العام خطاب شكر. وفي سنة ١٣٦٩هـ رغب بعض الموظفين الذين لا يتمكنون من الدراسة النهائية لإنشغالهم بأعمالهم الوظيفية، وهم بأمس الحاجة إلى زيادة =

على احتلاله، ولا تستعمل القناديل في اضاءة المساجد ليلاً فيكتفون ببعض

= معلوماتهم فكتبوا إلى جلالة الملك بطلب فتح مدرسة ليلية يقوون فيها معلوماتهم فأصدر أمره الكريم بفتح مدرسة ليلية لهم، وحيث إن أكثر مدرسي المدرسة الأهلية من حملة الشهادة الإبتدائية فقط ومن خريجي المدرسة نفسها عينوا فيها مدرسين للضرورة؛ لأنه في ذلك الوقت لا توجد مدارس تمنح شهادات ولا تعليم منتظم، ومدرسوا المدرسة الأهلية لا يستطيعون تدريس بعض المواد كالرياضيات وغيرها؛ عند ذلك طلبت من جلالته الأمر على من نختاره من بين مدرسي معهد الأنجال ومديره المربي الكبير الأستاذ عثمان بن ناصر بن صالح- أمد الله في عمره- ففيها مدرسين منتدبون من مصر، فإخترنا منهم إثنين: أحدهما لتدريس العلوم الرياضية والآخر لتدريس العلوم الإجتماعية فوافق جلالته وفعلاً تم فتح هذه المدرسة في ١٣٦٩هـ بعد سنتين من فتح المدرسة الأهلية بالمدرسة الأهلية نفسها؛ لأنها مؤثثة ومبناها جاهز، ويقبل في هذه المدرسة من يأتي بأمر من جلالة الملك أو من سمو ولي العهد، وتشجيعاً لهم على الدراسة قررت للدارسين وللمدرسين مكافأة كانت أكبر حافز لهم على مواصلة الدارسة، كما اصدر جلالته أمره الكريم بتأمين ما تحتاجه هذه الدراسة من أتاريك وغاز وغيرها من إحتياجاتها؛ وذلك لعدم دخول الكهرباء إلى البيوت والمدارس في ذلك الوقت، والتحق بهذه المدرسة ستون طالباً بما فيهم من رغب من مدرسي المدرسة الأهلية في تقوية معلوماته، وقد سارت هذه المدرسة سيراً مرضياً وآتت الثمرة المتوخاه منها، وعلى غرارها فتحت معاهد المعلمين الليلية، ومن بعدها المعاهد التكميلية، ولما كثر فتح المدارس، وكثر حملة الشهادة الإبتدائية وأقبل الناس على التعليم، صدر الأمر الكريم بفتح مدرسة ثانوية في الرياض على غرار مدرسة تحضير البعثات في مكة المكرمة، ولما وصل المدرسون المنتدبون من مصر للتدريس في المدرسة الثانوية في الرياض، أبرق مدير المعارف العام الشيخ محمد بن مانع لجلالة الملك بانه قد وصل مدرسو المدرسة الثانوية ونظراً لجد مدير المدرسة الأهلية وإخلاصه أرى أن يرفع إلى إدارة المدرسة الثانوية، وأن تفتح في المدرسة الأهلية، فأجابه- يرحمه الله- بما نصه: «رأيكم مبارك ونوافق عليه»، فصدر الأمر بترفيعي إلى إدارة المدرسة الثانوية، فكنت أقوم بإدارة المدرسة الأهلية والثانوية والليلية وجميعها في مبنى المدرسة الأهلية، ولما أنشئت أول وزارة للمعارف وعين فيها جلالة الملك فهد بن عبد =

الشموع ومن أعجب ما لاحظته عند صلاة الفجر بعد الانتهاء من الصلاة أن ينادي المؤذن بأسماء الذين اعتادوا الصلاة في المسجد فإذا تخلف أحدهم دون عذر شرعي عوقب للمرة الأولى بمصادرة «كوفيته» فإذا عاد عوقب بأخذ «عباءته» أما إذا عاد للمرة الثالثة فيأمر به مجلس الشرع بالضرب والسجن عدة أيام.

وقد جرت العادة بعد صلاة الجمعة أن يجلس الملك ونائبه في ردهة القصر الملكي ويستقبل المصلين فيمر بهم الساقي بالشاي، ثم بالقهوة النجدية ومن ثم يطوف بالحاضرين رجلان يحملان مبخرة يتضوع منها عبير المسك والعنبر ويعدون هذا بعد صلاة الجماعة مسك الختام فيبتهلون بطول العز والتأييد للملك.

أما القصر الملكي فهو مشيد على نمط عربي صرف تقوم في وسطه أعمده من الجبس الأبيض الناصع ذات نقوش عربية تستوقف الأنظار

= العزيز في اول سنة ١٣٧٣هـ، بعد أن كانت المعارف مديرية محدودة أصبحت، ولله الحمد وزارة كبيرة ذات جهاز ضخم فشمر عن ساعد الجد وأولى التعليم جميع إهتمامه وجميع أوقاته وعمل جادًّا في سبيل تطويره في جميع التخصصات، وشهدت المملكة العربية السعودية نهضة شاملة في مختلف نواحي التعليم، ولم يقتصر التعليم على البنين فقط؛ بل شمل البنات، فقفز التعليم قفزات واسعة في جميع المجالات، وأقيمت للمدارس المباني الضخمة والقصور الشاهقة على إختلاف أنواعها ما بين رياض أطفال ومدارس إبتدائية ومدارس متوسطة ومدارس ثانوية وجامعات؛ مما يدل دلالة واضحة على مدى حكمة الملك عبد العزيز وحسن إختياره وبعد نظره. وذهب إلى جوار ربه مطمئناً أنه قد سلم الأمانة إلى أياد أمينة تواصل مسيرة الخير والعطاء، فرحم الله الملك عبد العزيز، لخدمة الإسلام والمسلمين، وشد أزره بإخوانه الأمناء المخلصين من نواب وأمراء وجميع الأسرة الكريمة، راجع الشيخ عبدالله بن إبراهيم السليم: **التعليم في عهد الملك عبد العزيز، دارة الملك عبد العزيز ص ٢٥٠-٢٥٦.**



موظفو حكومة المملكة العربية السعودية

بدقتها وجمالها وهو يتألف من طابقين[1]. الطابق الأول وفيه قاعة المائدة الخاصة بضيوف الملك الأخصاء وغرف أخرى خاصة بإطعام اللاجئين

---

(١) ذكر أمين الريحاني في كتابه عنوان «في قصر السلطان عبد العزيز لمحات من حياة مواطن أو ضيف لسطان عربي والذي جاء فيه «يمتد صفان من المقاعد الطينية (دكة) حول سور القصر في مدينة الرياض- عاصمة عبد العزيز بن سعود، سلطان نجد- مكتظان بحشد من الناس ظننت لاول وهله أنهم جاؤوا لرؤيتي ورفيقي السيد هاشم وقافلتنا الصغيرة وطباخنا «هويدي» وبقية الخدم، ولكنني نسيت لحظتها أن الفضول ليس سجية عربية، لقد كان هناك خمسمئة رجل كانوا منذ زمن قصير بدواً يحترفون الترحال، يجلس بعضهم الآن بمهابة خارج القصر، ويتظر بعضهم الأخير في الفناء والممرات غير خانعين، بل بصفتهم شخصيات مهمة على موعد مع السلطان، ويبدو على بعضهم سيما الأمراء بينما يتخذ أصحاب الملابس البالية من عصيهم الخيزرانية الملازمة لهم دائماً أداة للإعتزاز بالنفس، وترتاح نهايات العصي المقوسة على شفاههم، وليس مهماً إن كانوا في حالة شرود ذهني أو في حالة تفكير عميق في =

لساحته الملكية من فقراء البدو والسابلة، أما الطابق الأعلى ففيه عدة ردهات كبيرة وبهو يسع نحو ثلثمائة شخص[1]، وقد خصص جناح

= أثناء وضعها على شفاههم. يتكرر هذا المشهد مرتين يوميًا ويتناول هذا الحشد من الناس وجبتين كاملتين ويخفي بعضهم تحت عباءته- المعرفو بالشبشت في نجد- قدوراً وأوعية خشبية يملؤونها بالرز واللحم؛ ليعودوا بها إلى اسرهم المقيمة في خيامهم السود خارج المدينة، وليس لهؤلاء الناس عمل في زمن السلم، وإنما يشكلون جزءاً من جيش السلطان المستعد، وهناك أيضاً إلى جانب المخازن في الدور الأرضي للقصر قاعة الطعام وقاعة الإنتظار، حيث يستقبل فيها المواطنون الزائرون قبل السماح لهم بالدخول إلى المجلس في الدور الثاني؛ وذلك لأن القصر لم يبن وفق خطة مسبقة، وإنما نشأ بالطريقة التلقائية التي هى سمة عربية مميزة، لقد قضيت أياماً عدة لأعرف طريقي في داخله، فدهاليزه طويلة الإلتواء، وممراته كثيرة التشعب، وفيه على الأقل عشر بنايات متصلة بقناطر، وليس إتصالها بنفق تحت الأرض، والقصر شبيه بمنازل الكثيرين من رعايا السلطان في الرياض» راجع أمين الريحاني: في قصر السلطان عبد العزيز لمحات من حياة مواطن أو ضيف لسلطان عربي ترجمة محمد بن منصور، دارة الملك عبد العزيز، العدد الثاني للسنة ٣٠، ص ٣٤١- ٣٤٣.

(١) بني الملك عبد العزيز قصراً جديداً لنفسه في مدينة الرياض، قصراً كبيراً يحتوي على غرفتين كبيرتين للمقابلات وفناء واسع، وكان القصر نظيفاً ومرتباً؛ لأن الملك قد ولي هاتين القضيتين إهتماماً بالغاً، وكان قسم الرجال مؤثثاً بالسجاد النفيس وبالطاولات الصغيرة المطعمة بالفسيفساء وخشب الأبنوس الأسود، ويغطي أرضية القصر حصيرات مصنوعة من سعف النخيل ذات لونين بني غامق ولون يميل إلى الأصفر، وبجانب الجدران أهرامات من المخدات والوسائد، يأخذ أحدها الزائر، فيجلس عليها متكئاً على الحائط، وتحضر الصحون وتوضع على السفر المخصصة لعشرة رجال؛ ليجلسوا حولها ويتحلق الحاضرون حول صحون الطعام، ويأكلون بأيديهم، وبعد العشاء يتجهون إلى أحواض المياه لغسل أيديهم، ونادراً ما شارك الملك هؤلاء الضيوف طعامهم، إذ أنه غالباً ما يتناول طعامه بمفرده ودون أولاده، راجع أندريه كابسكي: زيارة بولندي مسلم إلى المملكة، مجلة الدارة العدد ١، ٢ السنة السادسة والعشرون ١٤٢٤هـ، دارة الملك عبد العزيز ، ص ٢٦٢- ٢٦٣.

للديوان الملكي يشمل مكتبة الملك الخاصة وديوان سمو الأمير سعود وغرف خاصة لسكني كبار موظفي القصر وطبيب الملك الخاص. ويلاصق بناء القصر بناء كبير خاص لعائلة جلالته وحشمه وخدمه[1].

---

(١) **يقول أمين الريحاني** «صحبني جلالته ذات يوم إلى سطح القصر؛ ليريني البرج الذي يوجد فيه مصباح متوهج يبعث اشعة تخترق حقول النخيل المحيطة بالرياض، إنه منارة مضيئة تهدي القادمين من الصحراء أو الوادي، وبعد أن صحبني إلى البرج توجه بي إلى جناح آخر من القصر؛ ليطلعني على المدافع والبنادق الواقعة على سطح بناية مجاورة ذات شرفات ثمان، وكان مجموعها تقريباً خمسين قطعة، صنعت في إنجلترا وألمانيا، غنمها من ملك الحجاز السابق ومن الأتراك، ومن ابن رشيد، قلت في نفسي: سيكون الأمر أفضل لو إختصر جلالته الجولة في القصر وأطلعني على منطقة الحريم ولا بد أنه قرأ أفكاري؛ لأنه في مساء ذلك اليوم، بدلاً من زيارته لي كما هي العادة منحني إمتياز شرب القهوة معه في إحدي مقصوراته الخاصة جدًا، كان علينا أن نعبر متاهة، لكي نصل إلى المقصورة وكان المصباح معلقاً في مدخل يفضي إلى غرفة صغيرة مريحة، مؤثثة على الطريقة المعتادة، بالسجاد والمساند، ليست لها نوافذ ولا فتحات، ولكن السلطان لم يكن ضد إظهار المناقب المخبوءة في غرف جلوسه، فقد نهض وسحب حبلاً، فإنفتحت فجوة مربعة في الحائط بقرب السقف بين جلالته أنها وضعت «لدخول الشمس والهواء» ثم أشار إلى سيف معلق على وتد، وقال: «إنه أحب ممتلكاتي»، وأمر خادماً، أن ينزله، وكان مقبضه مرصعاً بالذهب، وغمده فضة خالصة، ويبدو أن عمر هذا السيف أكثر من مئة سنة، لأن سيف- سلفه- سعود الكبير، وتبدو شفرته أكثر قدماً، ناولني السلطان بيده وأخبرنا كيف قتل به أحد أعدائه الأشداء، وكان ذلك ثأراً، وهي عادة مشروعة ومحترمة، لقد كانت لحظة سعيدة فقد قبلت السيف، ثم أحضر صندوق العطور الجلدي، وأصر على تطييبي من مختلف الزجاجات، عطر على لحيتي، وآخر على غترتي، وثالث على صدري، وكانت العطور ثقيلة كزيت الورد الصافي، أما السيد هاشم فقد جرب جميع العطور بشكل متهور؛ ففاحت الغرفة بالروائح وبدأ رأسي يسبح؛ وأوشكت على الإغماء، **وقال السلطان للسيد هاشم ضاحكاً**: لا يعرف السيد حدوده، وفي الحال قدم لي مروحة بدوية، وفي اليوم التالي كان المشهد أكثر وضوحاً لما يقع خلف البوابة الجديدة التي إختفى =

= خلفها السلطان في ليلية البارحة عبر القنطرة؛ لأن جلالته بصفته دليلي عبر بنا ثلاثة أسطح وقنطرتين وعدداً من الممرات؛ لكي يصل إلى مقصورته الخاصة، حيث يمكننا رؤية صف يتكون من خمسة أو ست مبان ضخمة ذات أعمدة وشرفات، وقال جلالته: «تلك منطقة الحريم كل واحدة لها منزلها الخاص، وفي الردهة- حيث تناولنا القهوة- كان هناك بابان يفضي أحدهما إلى المسجد الخاص الذي يصلي فيه السلطان، ويذهب للصلاة في المسجد الكبير يوم الجمعة فقط، والباب الآخر يقود إلى المقصورة التي لم تدخلها إمرأة قط، راجع: أمين الريحاني: في قصر السلطان عبد العزيز، ص ٣٤٩-٣٥١.

الملك عبد العزيز(*)



الملك عبدالعزيز مع أمين الريحاني وحافظ وهبة ويوسف ياسين واقفين أمام إحدى طائرات ديترلاند (DH9)، وهي إحدى طائرات سلاح الجو السعودي (جدة، حوالي ١٣٤٧هـ/ ١٩٢٨م). المصوّر: مايرز ألب، المصدر: مركز دراسات الشرق الأوسط، كلية سنت أنتوني - اكسفورد.

(*) يصف الأمير ضاري بن فهيد الرشيد، الملك عبد العزيز فيقول عنه هو رجل مديد القامة حتى أنه لم يكن في نجد اليوم أطول منه، وهو مع ذلك متناسب الأعضاء، حسن الوجه، أبيض، شعره أسود خفيف اللحية، والعارضين، وهو جواد محبوب، ذو رأفه في عشيرته وممالكه، وإقامته في الرياض عاصمة ملكهم، راجع الأمير ضاري بن فهيد الرشيد: نبذة تاريخية عن نجد، ص٢١٩.

وأما الملك عبد العزيز بن سعود فهو طويل القامة ممتلئ الجسم، نحاسي اللون، براق العينين، سمح المحيا، يضع على عينية نظارة وتبدو عليه مخايل الذكاء المفرط وقوة الإرادة وشدة العزم مع سماحة الخلق وأناة وتدبر في كل ما يخرج من فمه من الكلام وجلالته يناهز الخمسين من عمره وقد أصيب في ابهام يده اليسري برصاصة أثناء الحرب فتركت أثراً ظاهراً فيه حتى الآن، ومن عادته إذا سار خفض برأسه نحو الأرض ويلبس عباءة نجدية مزخرفة بالذهب كثيراً ما يدفع جزءاً منها تحت أبطه، ولا يسرع أثناء سيره، وهو محبوب من شعبه، لا يتوجس خيفة شر من أحد فلا يهتم كثيراً بملازمة الحرس اياه[١].

---

(١) ذكر ستانسلو أ. كوروين البولندي المعروف بإسم باولوسكي في مذكراته عن الملك عبد العزيز سنة ١٩٣٤، أنه الملك عبد العزيز طويلاً (١٩٠سم) ونحيلاً وقويا كالحديد، ويعيش حياة متواضعة، فهو بصفته مسلماً حقيقيًا لم يمس المشروبات الكحولية قط، وبصفته وهابيًا لم يدخن التبغ أو يقامر على الإطلاق، وكان يحافظ على التقاليد السعودية، فلم يضحك، ولم يستمع إلى الموسيقي أو الغناء، ولكنه إستمع إلى المحاورات العلمية والثقافية، وحينما كان شابًا إعتاد أن ينام ٤-٥ ساعات ليلاً، ثم منح نفسه أخيراً ساعة إضافية، كان يأكل مرتين في اليوم، وتتكون وجبته الأولى من اللبن والبيض والفول والخضار والبصل والجبن المستخرج من حليب الماعز والشياه وفطائر البر بدلاً من الخبز والسمن والفواكه، أما الوجبة المسائية فتتكون من اللحم الضاني والرز المطبوخ والشوربة والتمر بالاضافة إلى الماء، ولم يكن في غرفة نومه أي نوع من التدفئة حتى في ليالي الشتاء الباردة، ولم يوضع المنقل، في داخل خيمته، وكان يعالج نفسه بالصوم وبالقليل من الماء، وكان يرتدي في مجالسه ملابس بسيطة ومتواضعة، ولم يتخذ قواعد تشريفية معينة في مجالسه، ولم يلبس أي علامة تدل على جلالته، وكان عرشه كرسيًا كبيراً بسيطاً «مذهباً»، ويغطيه جوخ أخضر، وينتصب خلف الكرسي علم المملكة الأخضر، ويظهر عليه نخلة وسيفان متقاطعان، ولم يكن الملك على أي حال بخيلاً، فكل يوم يطبخ الطعام لمئات عديدة من الضيوف والمراجعين والحراس والمسافرين والشحاذين، ويتكون الطعام من اللحم الضاني المشوي والمطبوخ مع الرز واللبن الحامض، ويمكن =

أول حديث ملكي

ومما يجدر بي ذكره أنه بعد أن مثلت بين يدي جلالة الملك كان أول ما ابتدرني به من الحديث أنه هنأني بسلامة الوصول وطفق يسألني باهتمام عما شاهدته أثناء سفري الطويل الشاق فكان يبتسم ابتسامات الاعجاب كلما أجبته على سؤال بما لا يخرج عما أسلفت بيانه في مقالاتي السابقة. ومن ثم بدأ جلالته يحدثني قائلاً «ليس عندنا سوى دين واحد ومذهب واحد والجميع يؤدون الصلاة وراء امام واحد وهذا ما نشكر الله سبحانه وتعالى عليه. نعم إن المذاهب أربعة ولكننا نعتقد أن مذهب الإمام ابن حنبل هو أقرب المذاهب للسنة النبوية السمحة[1] فلا نجد عندنا إلا ما يقوله المسلم لأخيه المسلم السلام عليكم وهم مرتبطون جميعاً بكلمة التوحيد وعلى هذا الأساس يقوم مُلكنا والحمد لله نحن لا نبغي المُلك لذاته فالمُلك لله الواحد القهار، فو الله وبالله لو أعطينا ممالك الأرض طرًّا وأحسننا أن ببعضها شركا لبعدنا عنها بُعد السماء عن الأرض، وليس يعنينا أن نقاتل الكفار ولا نبغي إلّا أن يهديهم الله سواء السبيل، فما داموا

= للمرء أن يأكل وأن يعود في اليوم التالي، فالكرم والبساطة في التعامل مع الناس والمساواة الصارمة بينهم كان ضروريًّا لإستقطاب صداقة البدو، وفي هذا المضمار إختلف آل سعود عن آل الرشيد في حائل الذين كانوا يفضلون الأبهة، مقلدين في ذلك أساليب الحياة في إسطنبول، راجع أندريه كابسكي: زيارة بولندي مسلم إلى المملكة، في عام ١٩٣٤، ص ٢٦١- ٢٦٢.

(١) بعد ضمّ الملك عبد العزيز الحجاز إلى المملكة أعلن فيها إتباع مذهب الإمام أحمد في الفقة ومذهب السلف الصالح في العقيدة وقد ذكر في خطبته في الحجاز «أننا لم نطع ابن عبد الوهاب ولا غيره إلا بما أيدوه بقول من كتاب الله وسنة نبيه محمد ﷺ، أما أحكامنا فنسير فيها طبق ما إجتهد فيه الإمام أحمد بن حنبل»، **جريدة أم القرى**: العدد الأول بتاريخ ١٥ جمادي الأول سنة ١٣٤٣، راجع عبد الرحمن بن عبد الله الشقير: المذهب الحنبلي في نجد، **مجلة الدارة، العدد الأول للسنة الثامنة والعشرون سنة ١٤٢٣هـ، ص ٩٩.**

بعيدين عنا فليس ينالنا منهم شيء ولا نحب أن نذهب إلى ديارهم ولا أن نتشبه بهم حتى ولا نرتدي شيئاً مما يلبسونه، أن المسلم الحقيقي هو الذي يتبع أصول دينه ويرعي أمر الله فمن شابه الكفار أو تشبه بهم فلا خير له في الدنيا ولا الحياة الآخرة»[1].

---

(١) من أقوال الملك عبد العزيز: «أنا أدعو لدين الإسلام، ولنشره بين الأقوام، أنا داعية لعقيدة السلف الصالح ، وعقيدة السلف الصالح هي التمسك بكتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، وعن الخلفاء الراشدين، ﷺ- أما ما كان غير موجود فيها فأرجع بشأنه إلى أقوال الأئمة الأربعة، فأخذ منها ما فيه صلاح المسلمين، أنا مسلم وأحب جمع كلمة الإسلام والمسلمين، وليس أحب عندي من أن تجتمع كلمة المسلمين، ولو على يد عبد حبشي، وإنني لا أتأخر عن تقديم نفسي، وأسرتي ضحية في سبيل ذلك، وأنا عربي وأحب قومي والتآلف بينهم وتوحيد كلمتهم، وأبذل في ذلك مجهوداتي، ولا أتأخر عن القيام بكل ما فيه المصلحة للعرب، وما يوحد أشتاتهم ويجمع كلمتهم. أنا مسالم ومدافع أنا مسالم للناس، وأحب النصيحة قبل كل شيء، لأن الدين النصيحة لله ولرسوله، ولأئمة المسلمين وعامتهم، وأنا مدافع عن الدين والعقيدة الإسلامية لأنني ما حاولت في وقت من الأوقات أن أعتدي على إخواني وأبناء قومي، وكنت في كل وقت أقابل ما يصدر إليَّ منهم من إساءة أو خطيئة، بصدر رحب على أمل أن يرجعوا إلى الصواب - ولكنني إذا رأيت تمادياً في الغي، والإساءة، اضطر حينئذ للدفاع، «أنا ترعرعت في البادية.. فلا أعرف أصول الكلام وتزويقه... ولكن أعرف الحقيقية عارية من كل تزويق.. إن فخرنا وعزنا بالإسلام»، «لم نتخذ التوحيد آلة لقضاء مآرب شخصية أو لجر مغنم، وإنما تمسكنا به عن عقيدة راسخة وإيمان قوي، ولنجعل كلمة الله هي العليا، «إن السعي لخدمة مصالح الحجاج في هذه البلد المقدسة من أسباب القرب إلى الله، إن شاء الله تعالى، ومن الواجب لمصلحة هذه البلاد العناية بهم والسهر على راحتهم»، «أنا داعية لعقيدة السلف الصالح، وعقيدة السلف الصالح هي التمسك بكتاب الله وسنة رسوله، وما جاء عن الخلفاء الراشدين أما ما كان غير موجود فيها فأرجع بشأنها إلى أقوال الأئمة الأربعة فآخذ منها ما فيه صلاح المسلمين»، «المشورة لها أساس وهو النصح بإلتزام الحق، ولها مزية ورونق، تحصل بهما الفائدة، أما السير على غير مشورة فهو مجلبة للنقص، مجلبة للهوى- هوى النفس- ونحن نريد المشورة =

تلك هي النفسية الدينية التي يدين بها الملك عبد العزيز الذي يحكم اليوم أرض نجد والحجاز ويقبض على ناصية الأمر فيها بيد من حديد، ولعل للأحكام الشرعية التي هي أساس قيادة الشعبين الأثر الفعال في قطع دابر حوادث السلب والنهب والاعتداء على الأرواح والأموال والأعراض كما كان يحدث من قبل في بلاد الحجاز وتأمين حجاج بيت الله الحرام من هذه الناحية(١)، ومع أن البدو أناس لا يخضعون لحكم أو سلطان فمن

= أن تجمع بين السنة وبين ما أمرنا الله به»، «لي الأمل الوطيد بأن الحكومات المحترمة ذات العلاقة بالبلاد الإسلامية والعربية لا تدخر وسعاً بأداء ما للعرب والمسلمين من الحقوق المشروعة في بلادهم». «الذي ندين لله به ونعتقده نحن ومشايخنا واسلافنا هو الصراط المستقيم ومن خالفه وهو جاهل، فيجب عليه التوبة والرجوع إلى الله، ومن خالفه وهو معتقد بطلانه فنشهد الله أنه ليس على شي». «أهم شيء يهمنا مراعاته وذلك أن لنا في الديار النائية والقصية إخواناً من المسلمين ومن العرب نطلب مراعاتهم وحفظ حقوقهم: فإن المسلم أخو المسلم يحن عليه كما يحن على نفسه في أي مكان كان»، راجع المملكة العربية السعودية في مئة عام، ص ٦٠-٦٣.

(١) **يقول الملك عبد العزيز**- رحمه الله تعالى- في مدينة الطائف سنة ١٣٥١هـ، **أحذركم من أمرين:**

الأمر الأول: الإلحاد في الدين، والخروج عن الإسلام في هذه البلاد المقدسة، فوالله لا أتساهل في هذا الأمر أبداً، ومن رأيت منه زيغاً عن العقيدة الإسلامية، فليس له من الجزاء إلا أشده، ومن العقوبة إلا أعظمها.

والأمر الثاني: السفهاء الذين يسول لهم الشيطان بعض الامور المخلة بأمن البلاد وراحتها، ولقد تابع أبناؤه من بعده المنهج نفسه بهذا المفهوم الشامل الواسع، حفظ الفرد، وحفظ المجتمع وإعانة المسلمين خارج المملكة فكان ذلك تطبيقاً أميناً وإمتثالاً لقول الرسول ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»، فهو العامل لقواعد الشريعة وأحكامها من التمزق والإنقسام وراء المذاهب والتيارات والبدع والأهواء .**وكان مما قاله الملك عبد العزيز رحمه الله تعالى في هذا الموضوع: «إن إعتصامي بالله وسيرى على الطريقة المحمدية وإقتدائي بعلماء المسلمين يدعوني، إن =**

العجيب أن يسري بينهم حكم الشرع ويخضعون له ذلك الخضوع، فمن البديهي أن دهاء هذا الملك ومقدرته على استمالة النفوس التي تأصل فيها الشر والفوضي منذ عدة قرون كانت هي العامل الفعال لاستقرار حكم الشرع بين تلك القبائل[1].

= شاء الله لعدم الجموح بالنفس وقد عاهدت الله على ثلاث:

أولها: الدعوة لكلمة التوحيد، وتحكيم الشريعة في الدقيق والجليل.

ثانيهما: الأخذ على يد السفيه، وتحكيم السيف فيه.

ثالثها: الإحسان للمحسن والعفو عن المسيء».

ويقول الملك عبد العزيز رحمه الله تعالى: «نحن دولة تقوم على كتاب الله وسنة نبيه محمد بن عبد الله ﷺ، نناهض كل ما يتعارض مع ذلك أو يخرج بنا عنه»، كما يقول الملك عبد العزيز - رحمه الله تعالى- في بيان الحرص على إستتباب الأمن في المملكة العربية السعودية: «إن البلاد لا يصلحها غير الأمن والسكون؛ لذلك أطلب من الجميع أن يخلدوا للراحة والطمأنينة، وإني أحذر الجميع من نزعات الشياطين والإسترسال وراء الأهواء التي ينتج عنها إفساد الأمن في هذه الديار، فإني لا أراعي في هذا الباب صغيراً ولا كبيراً، وليحذر كل إنسان أن تكون العبرة فيه لغيره».

الأمر الثالث: حرصه على أمن البلاد المقدسة خاصة. أصدر الملك عبد العزيز رحمه الله في مكة المكرمة سنة ١٣٤٤هـ بلاغاً جاء فيه: «إخواني: تفهمون أنني بذلت جهودي وما تحت يدي في تخليص الحجاز وأهله لراحة أهله وأمن الوافدين إليه طاعة لأمر الله... ولما من الله بما من، من الفتح السلمي الذي كنا ننتظره ونتوخاه، أعلنت العفو عن جميع الجرائم السياسية في البلاد، وأما الجرائم الأخرى فقد أحلت أمرها للقضاء الشرعي؛ لينظر فيها بما تقتضيه المصلحة الشرعية في العفو، وإنا أبشركم بحول الله وقوته أن بلد الله الحرام في إقبال خير، وأمن وراحة وإنني سأبذل جهدي فيما يؤمن البلاد المقدسة، ويجلب الراحة والإطمئنان لها». راجع عبد الرحمن بن سليمان الخليفي: الأمن في عهد الملك عبد العزيز، ص١٨٠- ١٨١.

(١) **ذكر حافظ وهبة أعمال الملك عبد العزيز الإصلاحية وقال**: لا يقدّر مجهودات الملك عبد العزيز حق قدرها إلا الواقفون على احوال البلاد العربية المتصلون بها، الخبيرون بشؤونها، الملمون بأحوال سكانها وطرق معيشتهم، إن الذي يعرف =

وإذا ألقينا النظر على شكل حكومته لا نجد فيها هيئة وزارية، ولا مجلس وكلاء، ولا مستشارين، ولا رجال تشريع بالمعنى الذي نفهمه نحن، فالأموال العامة تجبى من الأهالي بغاية السهولة وتحت تأثير حكم الشرع ويتولاها رجل واحد هو موضع ثقة الملك وحاشيته فأكبر مبلغ وأقل مقدار من المال سواء أكان لمصلحة عامة أو خاصة انما يصرف بموجب قطعة ورق يكتب عليها الملك أو نائبه أمر الصرف دون الحاجة إلى إدارة خاصة بالحسابات وعدد كبير من الموظفين ويتحتم أن تعرض سائر مكاتبات الدولة في كافة شؤونها عليه وكذلك يطلع بذاته على

= بلاد العرب- قبل ثلاثين سنة- عن خبرة شخصية، أو يقرأ كتب الجوابين من الإنجليز: يعرف ما لهذا الرجل من فضل في إستتباب الأمن، والضرب على أيدي قطاع الطرق من القبائل، والذي يعرف بلاد العرب وما كانت عليه من تشاحن بين امرائها، وحروب مستعرة بين حكامها، يقدر مجهود هذا الرجل في قطع دابر الخصومات بتوحيد بعض الإمارات المتخاصمة، ولقد ذكرنا في فصول متفرقة في هذا الكتاب ماله من الأيادي، كإدخال النظام الصحي الحديث في نجد والإحساء بالإكثار من الأطباء، وإنشاء المستشفيات المتنقلة لمعالجة المرضى، لأن حالة البلاد المالية لا تساعد على إنشاء مستشفي في كل بلد، كما أدخل نظام التطعيم ضد الجدري بالرغم من معارضة بعض المتعصبين، كما ذكرنا فضله على العمل لنشر التعليم والإكثار من المدارس ومكافحة الجهل بكل الوسائل الممكنة، ولولا قلة المال الذي يعوز كل مشروع إصلاحي لوجدنا البلاد العربية التي يقود سفينتها عبد العزيز أسبق البلاد وأسرعها خطى في طريق التقدم، والملك عبد العزيز في طريقه الإصلاحي يفضل التؤدة والتأني وإعداد الشعب تدريجيًا لما يريد له من الإصلاح، إن كثيراً من القراء لا يدركون الصعوبات التي كان يعانيها الملك عبد العزيز، ولا العقبات التي كانت تقف في سبيل ما يريد من المشروعات، لقد مكث الملك عبد العزيز يجاهد ويجالد في سبيل التليفون والتلغراف واللاسلكي جهاداً عنفيًا- مرة مع الإخوان، وآونة أخرى مع العلماء نحو عشر سنوات- وكان هذا الموضوع من الموضوعات التي أثارت عليه حفيظة الإخوان، راجع حافظ وهبه: في قلب جزيرة العرب، ص ٢٨١.

ما يتحرر من المكاتبات ويبصمه بخاتمه الذي لايفارق أصبعه. هذا فيما يتعلق بحكومة نجد فقط، أما الحجاز ففيها حكومة منظمة وإدارات متعددة كإدارة الأمن العام وإدارة الشؤون الخارجية وغيرها، على أن المرجع الأعلى لكافة شؤون الحجاز أيضاً يجب أن تعرض على جلالة الملك عبد العزيز شخصيًّا.

السلطان عبد العزيز ملكاً[1]

ولنعد إلى الرياض فقد ذكرنا بأن جلالة الملك كان قد وصل إليها قبل أن نبلغها بأربعة أيام بعد أن غاب عنها زهاء ثلاث سنوات قضاها في الحجاز بعد انتصاره في الحرب المعلومة، فكان بديهيًّا أن تنتشر معالم الأفراح عند عودته فاتحاً ومنصوراً، وبعد غيبة طويلة لم يسبق لها نظير من قبل فقد غصت المدينة بوفود من أطراف البلاد للترحيب بمقدمه وكانت

---

(١) «إعلان ملكية نجد وملحقاتها» صورة البلاغ الذي أذاعه نائب جلالة الملك بإعلان ملكية جلالة الملك المعظم على مملكة نجد وملحقاتها، بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأصحابه وبعد فبمناسبة تشريف مولاي صاحب الجلالة ملك الحجاز السلطنة النجدية وملحقاتها تقاطرت إليها الوفود من سائر أنحائها، وعقدت هذه الوفود من أهل الحل والعقد مجلساً حافلاً ضم ممثلي كافة مقاطعات السلطنة لنجدية وملحقاتها في ٢٥ رجب سنة ١٣٤٥هـ تحت رئاسة الإمام الجليل عبد الرحمن الفيصل والد جلالة الملك المعظم وقرر المجتمعون وهم أهل الحل والعقد جعل السلطنة النجدية وملحقاتها مملكة بإسم المملكة النجدية وملحقاتها، و المناداة بحضرة صاحب الجلالة الملك المعظم ملكاً عليها ثم رفعوا الأمر إلى جلالته ملتمساً قبول ماتم القرار عليه فوافق جلالته على مقرراتهم: وفي يوم الإثنين ٩ شوال أقامت الحكومة في قاعة الديوان الملكي في اجياد حفلة رسمية لإعلان ملكية نجد وملحقاتها فكانت حفلة بديعة أطلقت المدفعية من قلعة اجياد مائة مدفع ومدفع، وزينت البلدة ثلاث أيام، عبد الله غازي: إفادة الأنام بتاريخ بلد الله الحرام، ص ٣٥١.

مناظر ساحرة يبديها أولئك الوافدون من مظاهر التهليل والاغتباط في وسط جذال آل البيت سعودي فكنت ترى الاعطيات الملكية تفيض على فقراء الوافدين والهدايا تعطي لكرامهم وألسنة الجميع لاهجة بالشكر والحمد.

وقد دعيت لحفلة اعلان المناداة بجلالة عبد العزيز ملكا على نجد بعد أن كان سلطانا وقد فاضت فيها ألسنة الشعراء والخطباء ببيان صفات مليكهم وما أحرزه من فخر الانتصار في فتح الحجاز وقد قال أحدهم «ما دامت الحجاز أصبحت من أملاكنا فلا يجوز أن تنفرد بوصف أنها دولة ملكية دون نجد التي لا تقل عنها شأناً».

حفلة زواج الأميرة سارة

دُعيتُ لحضور حفلة زواج الأميرة سارة ابنة جلالة الملك على ابن عمها الأمير فيصل بن سعد[1]، فكانت حفلة غاية في البساطة فقد فرشت ساحة القصر بالأبسطة الفخمة ومدت الموائد الشهية وبعد أن تناول المدعوون ما لذ لهم وطاب أمر جلالته بنحر خمسمائة شاة وتوزيع لحومها على الفقراء والمعوزين. وبعد انصراف المدعوين جئ بأحد العلماء وتولي أداء المراسم الشرعية، فكانت حفلة عربية أمثال تلك التي حدثنا عنها السلف الصالح فبساطة مصحوبة بإسداء التكرمه للجائع والمحروم وابن السبيل ومظهر من مظاهر تعلق الشعب بمليكه ومثل أعلى في تقرب الملوك من رعاياهم.

(١) سمى الملك عبد العزيز بنته الأميرة سارة على إسم والدته الأميرة سارة بنت أحمد السديرى راجع فهد السماري: دراسات في تاريخ المملكة العربية السعودية، زوجة الملك عبد العزيز الأولى، دارة الملك عبد العزيز، العدد الأول ١٤٢٢هـ، ص ١٢.

تجارة الرياض

وأهل الرياض يشتغلون بجلب المتاجر من «الأحساء والكويت والبحرين» يتبادلون وتلك البلاد بمصنوعات نجد وماشيتها، بل هناك مورد عظيم هو اجادة النجديين استخراج اللؤلؤ والمرجان من قاع مياه الخليج العربي، أما الحالة الزراعية فليست بذات شأن يذكر حول الرياض اللهم إلّا بقدر حاجة السكان فيمكن أن توصف الرياض والحالة هذه بأنها مركز تجاري ومقر حكم البلاد لا أكثر ولا أقل. ويتعامل الأهالي هناك بالجنيه الانكليزي والعثماني والروبية الهندية والريال الشوشي الذي أسلفنا ذكره عن «حائل» وأجزاء هذا الريال «الجديدة» بينما أجزاؤه في حائل «البشالك» ويساوي الريال في الرياض ٤٣ جديدة وأجزاء الجديدة ست قطع من البرونز مطلق عليها أسم «بيزة»[1].

---

(١) الحضر هم الأهالي الذين يشتغلون بالزراعة والتجارة ويسكنون القرى ولا شك أن حياة الحضر داخل الجزيرة متأثرة إلى درجة ما بحياة البدو الرحل للمصاهرة والمشاركة في أعمال التجارة وغيرها، لذلك فالحضر تختلف طباعهم بإختلاف المناطق التي يعيشون فيها، فأهل حايل أقرب إلى مظهر البداوة وأهل القصيم ألين عريكة من أهل العارض لانهم كثيروا الأسفار والإختلاط مع البلاد الأخرى كالشام ومصر، لذلك ترى أن موظفي الديوان الملكي المكلفين بالمقابلات والتشريفات من أهل القصيم أو حايل حافظ وهبة: في قلب جزيرة العرب ص ٦.

حياة الملك
عبد العزيز اليومية[(١)]





الملك عبدالعزيز مع عدد من أبنائه على سطح قصر المربع
من اليسار إلى اليمين الأمراء:
تركي، بدر، مشاري، متعب، عبدالرحمن، مشعل،
سلمان، فواز، عبد المجيد، سعود، مقرن، عبدالإله، سطام، فهد،
ماجد، نايف، نواف، طلال. ويظهر على اليمين فؤاد حمزة ومحمد بن دغيشر.
(الرياض ١٣٧٦هـ/ ١٩٤٦م)

---

(١) **حياة الملك عبد العزيز الشخصية**: لقد صحبت الملك عبد العزيز في السلم وفي الحرب، وعاشرته في البادية والحاضرة، وخبرته في حالتي الرضا والغضب، وحياته الشخصية لا تكاد تختلف عن حياته العامة إلا يسيراً، فهي أشبه بنظام أتوماتيكي لا يكاد يتغير، يقوم الملك عبد العزيز عادة قبل الفجر بساعة، فيقرأ ما تيسر من القرآن الكريم، حتى إذا أذن مؤذن الفجر أدي فريضة الصلاة، ثم ينصرف إلى بيته يقرأ شيئاً من القرآن والأوراد الصحيحة النسبة عن النبي ﷺ، ثم تعرض عليه الأشياء التي تقتضي البت فيها بسرعة، ثم ينام بعد ذلك قليلاً فيغتسل كل يوم صباحاً ويلبس ثيابه ويفكر، ثم يخرج إلى مجلسه الخاص، فتعرض عليه مهام الحكومة، ويعطي أوامره لموظفيه فإذا إنتهي من ذلك قابل الناس من شيوخ البدو وكبار العرب مقابلات خاصة، يسمع شكوي المشتكي ونصح الناصح، ويباحث زعماء الزوار فيما يهم من =

لقد اعتاد الملك عبد العزيز أن ينهض قبل انبثاق الفجر دون أن يلزم

= شؤونهم، ثم يذهب إلى المجلس العام الذي يجتمع فيه كل من يريد مقابلته، ويقضي في هذا المجلس نحو ساعة يمضيها في حديث أشبه بخطابة فيما يهم من أمور الدين والدنيا، وينصرف إلى الغذاء ثم يرجع إلى بيته فينام قليلاً ثم يصلي الظهر، ثم يرجع إلى مجلسه الخاص فتعرض عليه الشؤون الهامة، ثم ينصرف لصلاة العصر، فيحضر عنده إخوانه وأولاده وأقاربه وكبار الموظفين يسامرهم، ثم يخرج بعد ذلك في سيارته إلى الضواحي للرياضة، وبعد العشاء يجلس في مجلس عام، وهنالك يحضر قارئ يقرأ نحو ساعة وشيئاً من كتب مختلفة في الحديث والتفسير والتاريخ والأدب وبعد ذلك ينصرف إلى بيته، ومما يجب أن يذكر: أن الملك عبد العزيز، أثناء إقامته في الرياض كان يقوم بزيارة والده الإمام عبد الرحمن- رحمه الله وغفر له- كل يوم، وكذا سائر أقاربه الأدنين وكذلك لا تزال هذه عادته في مكة يزور كل يوم من يكون حاضراً بها من اقاربه والملك إبن سعود مشهور في بلاد العرب بكرم الخلق وبسط اليد، لا يعرف أي قيمة للدرهم، إلّا أنه وسيلة للزلفي عند الله أو لبناء المجد، أو حسن الذكرى فقلما يرد سائلاً يطلب معونته، أو محتاجاً يقصد بابه، وهو يشرف بنفسه على إعطاء القاصدين حسب منازلهم، لأنه هو يعرفهم حق المعرفة، وقلما يعتمد على أحد آخر في ذلك على أن هذه العطايا قد يكون لها مرام سياسية بعيدة يرمي إليها، وديوانه مفتوح للقادمين يقابل زائريه مهما صغر مقامهم بوجه باش، ويأخذ ألبابهم بإبتسامته التي لا تكاد تفارقه، ومجلسه لا يخلو من خطبة صغيرة يراعي فيها نفسية السامعين. ولا يضيق صدر الملك عبد العزيز إلا عندما يجد خزائنه تضيق عن الطلبات والعطايا، فهو يتكدر خوف أن يظهر بمظهر العاجز أمام السائلين الذين تعودوا رفده. وكان الملك يسخر منا كثيراً حينما ننصحه بالإدخار، ونقول: إن المستقبل عامة عند الله، وإن الرخاء ليس بدائم فيقول: إن كنز المال لا ينفع، هل أفادت السلطان عبد الحميد خزائنه وما أدخره من المال؟ وهل أفادت خزائن ابن الرشيد؟ وأعتقد أن الملك قد غير فكره في هذه الأزمة التي أخذت بالخناق وأصبح يعتقد في المال وفائدة إدخاره لوقت الشدة، والملك عبد العزيز من المعجبين بمحمد بن الرشيد أمير حايل، والذي امتدت سيادته وقتا ما على نجد كلها، والذي في أيامه هاجر الملك- وكان الأمير الصغير- مع والده إلى الكويت وهو ينحو نحوه في طريقه العطاء =

أحداً من خاصته بالنهوض في ذلك الوقت وبعد أن يتوضأ ويتلو ما تيسر

= وهو دائماً يقص القصة الآتية إعجاباً بتصرف الرجل: وفد شيخ من مشايخ البدو الكبار على محمد بن الرشيد، فأكرمه وأعطاه شيئاً قليلاً، وفي نفس الوقت وفد شيخ من مشايخ البدو الصغار- وكان الأخير في وقته يقطع الطريق مع رجال قبيلته في شمال نجد- فأكرمه إكراماً زائداً، وكساه وأعطاه منحة كبيرة فسئل محمد بن الرشيد عن هذا التصرف الغريب؟ فقال: أما الأول فإنه وإن كان قويًّا وكبيراً، ولكنه يحس بما عليه من المسئولية، وإنه يحافظ على مركزه وماله بالولاء لنا، فهو في حاجة إلينا، وأما الآخر فمثل العصفور من شجرة إلى أخرى يتعبك صيده فنحن في حاجة إلى تأليفه وإرضائه، وما نكف به شره لا يساوي شيئاً إذا قورن بما نبذله لتأديبه وعقوبته.

الملك عبد العزيز وفي لأصدقائه، محافظ على ودهم ولا يحب أن يبدأ أحداً بالعداء، ويميل إلى إسترضاء الناس وإكتساب ودهم مهما كلفه ذلك، ولكن إذا تيقن أن ليس هنالك من سبيل للصداقة فإنه يعادي- ويعادي بشدة- ولكنه قلما يهاجم خصمه، فإذا هاجمه خصمه فإنه يبذل كل ما يمكنه بذله للقضاء عليه، وهو في هذه الحالة يأخذ بسياسة «الغاية تبرر الوسيلة»، والملك عبد العزيز طيب القلب، لا يكاد يضمر حقداً، وهو إذا غضب- وغضبه قليل- فإنك تري أسداً يزأر، أو حملاً يهدر، وتكاد عينك تكذب أن هذا الغضبان هو عبد العزيز بن سعود الرضي الخلق الوسيم الوجه، وكثيراً ما كان يعتذر عن التصرفات التي تصدر في حالة غضبه، كما أنه كثيراً ما يغمر خدمه الذين يصيبهم من شرر غضبه ما ينسيهم ألم ما أصابهم. وهو متواضع، طيب العشرة، رقيق السمر، له جاذبية لمن يعرفه تشبه السحر، وإني لا أذكر أن واحداً من كبار الإنجليز عرفه وعامله إلا أحبه، ولا يزال له أصدقاء من الإنجليز الذين كان له معهم إتصال سياسي، وهو كثير الشبه بمعاوية بن أبي سفيان في حلمه وبعد نظره وحسن حيلته في تصريف الأمور، في سنة ١٩٢٥م كان الملك ابن السعود يظهر إعجابه بالإنجليز، وسعة ملكهم، وإخلاص رجالهم لبلادهم **الجنرال كلايتون، فقال الجنرال**: إن ما ذكرته صحيح، ولكن هذا الملك الواسع لم يؤسس إلا في مئات السنين، ولكن ألا يصح لنا نحن الإنجليز أن نعجب بك، فإنك في ثلاثين سنة قد أسست مُلكاً واسعاً وإذا أطرد لك هذا الفتح وهذا التقدم فأظن أنه في نصف المدة التي أسسنا ملكنا تؤسس أنت إمبراطورية مثل أو أكبر من إمبراطوريتنا، وهذا ليس ببعيد إذا ساعدتكم تصرفات الزمان، وأخذتم بسنن التقدم، =

من القرآن الكريم ويؤذن المؤذن لصلاة الفجر يقصد إلى مسجد القصر

= فإن أسلافكم العرب قد شيدوا إمبرطورية عظيمة في مدة قصيرة جدًّا لم يعرف التاريخ مثلها .فقال الملك: هذه وإن كانت أمنية العرب، ولكنني لا أعتقد في نفسي القدرة على تحقيق ذلك، وكل ما أتمناه أن يجعل الله من رجالنا من يماثلكم في الإخلاص والتضحية لبلادهم، والملك ابن سعود ربما كان أهم أمراء العرب وأبعدهم عن الإنتقام من الموظفين، ولا سيما الموظفين الذين يعرف لهم بسوابق خدمة أو إخلاص فإن هؤلاء أقصى عقوبة لهم العناية، والملك ابن سعود يتساهل في كل شيء إلّا ما يمس سيطرته الشخصية، أو ما يمس مركز حكومته، فإنه لا يتساهل فيه مجال، وقد يعاد المعزول إلى منصبه أو أعلى منه إذا تصرف بعد العزل تصرفاً يرضي الملك، لقد عزل الملك أمير الطائف سنة ١٩٢٧م لشدته، فلما حضر إلى مكة قال له الملك، إننا لم نعزلك من منصبك لنقص في دينك، أو شبهه في أمانتك ولكننا نحيناك لشدتك، ونحن نريد اللين مع الناس، فقال له الأمير: الحمد لله لقد ولاك الله على المسلمين وأنت أعلم بمصالحهم، ولئن حرمت من المنصب فإنى أتمتع برؤيتكم صباحاً ومساء، وهذا لا يعادله شيء عندي في هذه الدنيا، فسر الملك لهذا الجواب اللطيف وواظب هذا الأمير على الحضور على مجلس الملك كل يوم فلم تمض بضعة أشهر على عزله من الطائف حتى عين أميراً للمدينة، والملك عبد العزيز من الرجال العمليين الذين لا تغرهم مظاهر الأمور كان علماء الرياض لما إعتراضوا عليه سنة ١٣٤٩هـ (١٩٣٠م) إذنه بإقامة الإحتفالات لمناسبة عيد جلوسه على عرش الحجاز، ومخالفة ذلك السنة، أرضاهم بالنزول على رأيهم؛ لأن مايتعلق بشخصه لا أهمية له في نظره، ولكن هذا لم يمنعه من معارضتهم في تعميم المواصلات اللاسلكية في بلاده وتشييدها، لإعتقاده بخطأ المعلومات التي تصل إلى نجد عن التلغراف اللاسلكي من أنه من عمل الشيطان، وأنها بالعكس ركن من أركان السلم وحفظ الأمن وإنجاز الأعمال، **حافظ وهبة: المرجع نفسه، ص ٢٧٧- ٢٨٠**، ويذكر آخر أن الملك عبد العزيز بعد صلاة الفجر كان يأمر بالفطور الذي يتكون عادة من الحنيني وهو عبارة عن خبز من الحنطة السمراء معجون بالسمن والعسل والتمر وهو تسميه محلية وذلك إلى جانب المراصيع والشلف واللبن والزبد والتمر والقهوة، راجع محمد بن رشيد الماجد الدوسري: ذكريات أصغر مرافق للملك عبد العزيز، ص ٦٨. =

حيث يكون في انتظاره هناك عدد من عبيده فيؤدي صلاة الفجر ومن ثم يعود إلى ايوانه فيتناول طعام الإفطار مع من يكون حاضراً من أبنائه وأفراد أسرته حتى إذا فرغ من هذا انتقل إلى مكتبه الخاص في ديوانه فيأخذ في مطالعة الرسائل واستعراض بعض المسائل وبحثها وابداء رأيه كتابة ويظل كذلك حتى بعد شروق الشمس بساعة، ومن ثم ينتقل إلى إحدى قاعات الاستقبال حيث يستقبل بعض أخصائه ويرسل في طلب بعض من لهم به شأن هام وبعد ذلك يستقبل وفود «الاخوان» فيقضي في الاحتفاء بهم ومسامرتهم وسماع مايدلون به إليه من الأقوال والأحوال وقتا غير قليل، ومما يذكر أن أولئك الأخوان يتحدثون إلى مليكهم كأنما يخاطبون واحداً من إخوانهم البدو في الصحراء وليس ذلك منهم كما يتبادر إلى بعض الأذهان «جلافة بدوية» ولا قلة احترام لملوكهم ولكنهم يفعلون ذلك تمسكا بسنة السلف الصالح والسير على ماكان عليه المسلمون في أيام الخلفاء الراشدين، مثال ذلك أني رأيت أحدهم يخاطب مولاه الملك بقوله (يا عبد العزيز)!. فاستكبرت منه ذلك وكدت لا أصدق سمعي لحقارة شأن المتكلم وسعة صدر جلالة المخاطب لولا أن أحدهم همس في أذني قائلاً: «ذلك هو الدستور الذي شرعه لنا هذا الملك فهو يقبله على العين والرأس ولايرضي سواه بديلاً».

في المجلس الكبير

وعند الضحي ينتقل جلالته إلى قاعة تعرف باسم «المجلس الكبير» حيث يجتمع فيها عادة أمراء الأسرة الرشيدية وآل عائض وهذه الأخيرة هي الأسرة التي كانت تحكم بلاد أبها التابعة لحكم نجد الآن[1] وكذلك بعض

(١) يذكر الأمير طلال أن الملك عبد العزيز ذات يوم كان مجتمعاً وحوله رجال آل رشيد وعدد من وجهاء وعلماء نجد وهنا قال الملك عبد العزيز «يا آل رشيد إعلموا أنكم عندي بمنزلة البنين وأنتم في الرياض هنا تعيشون كما أعيش أنا وأولادي ثيابكم مثل =

كبار أعيان نجد وزعماء باديتها، وهناك في هذا المجلس يستعرض جلالته الشؤون العامة في كل دق وجل. فبينما نراه يعلق على حديث نبوي أذا به يصل هذا التعليق بمسألة عامة أو بحادثة تاريخية أو بأمر مستقبل يريد أن يومئ إليه بهذا الحديث، ومع أن جلالته صريح في بيانه فهو يتجنب بقدر الامكان المغامز والايماء وما عساه أن يؤول تأويلاً مسيئاً ولا سيما عند بعض أفراد أسرة آل الرشيد وآل عائض[1]. ولهذه المناسبة أذكر أن جلالته تفضل بدعوتي إلى هذا المجلس وفي الأثناء لفت نظري إلى نبذة في إحدى الصحف السورية جاء فيها أن السيد عبد الله بن عائض ترك مكة المكرمة وأنه حشد جيشاً على جلالة الملك ابن سعود في حين أن السيد المشار إليه كان من بين الحاضرين في المجلس! فلما قرأت هذا ابتسمت وقلت لجلالته **(وما آفة الأخبار إلا رواتها)** فلا يصح يا صاحب الجلالة أن تكون مثل هذه الرواية المكذوبة دليلاً قائماً على أن الصحف سواسية في

= ثيابنا وأكلكم مثل أكلنا وخيلكم مثل خيلنا وأزين، فهل فيكم من يشك في ذلك تكلموا؟ فلم يفه أحد بكلمة.. غير أن واحد منهم يقوم من مجلسه نحو عبد العزيز فيقبله على جبينه وعلى أنفه وصوت كبير آل رشيد يرتفع بالدعاء قائلاً «أدامك الله وأدام بك وحدة كلمتنا»، راجع **طلال بن عبد العزيز، صور من حياة عبد العزيز، ص٨٤.**

(١) كان الملك عبد العزيز يحترم أسرة آل رشيد وآل عائض ولا يؤذيهم لا بقول أو فعل ويتحدث الأمير طلال في كتابه عن حب الملك عبد العزيز وحنانه على آل رشيد وال عائض وحب الآخرين له حيث يقول أن من أحب جلساء الملك عبد العزيز وخلصائه هو الأمير عبد الله بن متعب بن رشيد أمير حائل الذي قال في إحدى المناسبات «لو أن في الأجل ما يمنح لمنحت عبد العزيز قسطاً من أجلي» وقد كان الملك عبد العزيز يبادل الأمير عبد الله بن متعب حبًّا بحب قال أحد إخوان الأمير طلال أن الملك عبد العزيز عندما سمع نعي الأمير عبد الله بن متعب بكى بكاءً مؤثر، وأن الملك عبد العزيز لم يعد يتحدث في مجلسه أحاديث ممتعة مثل ما كان يبادله ابن متعب الحديث، راجع **طلال بن عبد العزيز: المرجع نفسه، ص ٧٢-٧٣.**

هذا الباب. يدلك على ذلك أن الصحافة المصرية مثلاً شديدة التدقيق في رواية الأخبار فهي لا تقنع من صحة رواية بما يصل إليها من مصدر معين إلا إذا تثبتت كل التثبت من صدقه، وكذلك الشأن في كل صحيفة تحترم نفسها ولا تبغي سوي تقرير الحقائق وإنارة أذهان الجمهور بها. وهنا قال جلالته أنه يجل الصحف المصرية ويعتبرها في طليعة صحف العالم الإسلامي وما كان يقصد من لفت نظري إلى تلك النبذة إلا ليلفتني كصحفي إلى أن كل ما يقال غير صحيح وان جلالته وجيرانه وكل من يتصل بملكه من كبار رجال العشائر وأقطابها على اتفاق ووئام، فأمن المجلس على قول جلالته وفي مقدمتهم السيد عبد الله المذكور.

وبعد أن ينفض ذلك المجلس يذهب جلالته إلى القصر الخاص الذي يقيم فيه والده الشيخ[(١)] وهو رغماً عن كونه في العقد التاسع من عمره على جانب عظيم من الذكاء وسرعة البديهة ورقة الجانب فضلاً عن كونه محبوباً من سائر أهل نجد[(٢)]، وبعد أن يقضي في حضرته برهة ينتقل إلى زيارة كبرى شقيقاته الأميرة «نورة» التي يجلها جلالته ويضعها

---

(١) يروي الأمير طلال أن من بر الملك عبد العزيز بوالده الإمام عبد الرحمن انه كان يخرج كل صباح من قصره بميدان الصفاة ماشياً إلى قصر جدي فإذا وصل باب القصر، أرسل من يستأذن له بالدخول إلى مجلسه للسلام عليه ويبقي ينتظر ورود الإذن له فإذا جاءه الإذن دخل إلى المجلس وسلم على والده وقبل يده ثم يجلس بعيداً إلى جوار الباب حين يكون مجلس أبيه غاصاً بمن قدموا للسلام عليه، هكذا كان دأبه في كل مجلس يكون فيه والده ولا يتكلم إلّا مستأذناً، وإذا تكلم غض من صوته في أدب جم، راجع **الأمير طلال بن عبد العزيز: المرجع نفسه**، ص ١٠٥.

(٢) عندما عاد الملك عبد العزيز إلى الرياض بعد إسترجاعها من آل رشيد، كتب رسالة إلى والده يقول «**الإمارة لكم وأنا جندي في خدمتكم**» فجمع الإمام الوالد العلماء وأعلمهم بالأمر ثم أرسل إلى ولده عبد العزيز يقول «الإمارة لك ولن أقبلها مطلقاً. وإن الححت فلن أقيم في الرياض» وهنا تدخل العلماء في الحال وقالوا للملك عبد العزيز هذا أمر من والدك وعلى الإبن أن يطيع أباه ثم قالوا للإمام الوالد أن والد =

في مكان خاص من نفسه فقد جرت عادة أهل نجد أنهم يخصون كبرى شقيقاتهم بأجلى مظاهر التوقير والاجلال[1]. ومما أذكره أيضاً بالشكر والثناء لهذه الأميرة الجليلة ذلك الكرم العربي ومكارم الخلال فقد كانت تبعث إلي يوميًا بمختلف ألوان الطعام ولا تنفك تستفسر عن حالي وتبالغ في أكرام جانبي[2].

ومن عادة جلالته بعد أداء صلاة العشاء أن يطوف بموظفي ديوانه ويستطلع مالديهم من الأعمال ويزودهم بما يعن له من الآراء وفي بعض الأحيان عندما يرى الظروف مناسبة يستقل سيارته ومعه بعض أفراد حاشيته ويذهب للصيد والقنص في البادية، وقد رأيت بين سيارات جلالته سيارة يهتم بها جد الاهتمام ولايركبها إلا في الحفلات الهامة، تلك هي السيارة الفخمة التي أهداها إليه حضرة صاحب الجلالة فؤاد الأول صاحب النيل[3].

= عبد العزيز رئيس عليه وبالتالي على أهل نجد، راجع الأمير طلال بن عبد العزيز: المرجع نفسه، ص ١٠٥-١٠٦.

(١) كان الملك عبد العزيز يحب أخته الكبري نورة حبًا جمًا، حيث كانت لها معزة مختلفة في قلب الملك عن باقي الأسرة السعودية التي يحبها الملك ويحنوا على جميع أفرادها بالعطف وقد روي الأمير طلال بن عبد العزيز ابن جلاله الملك عبد العزيز بن سعود إذا إشتد به أمر وإضطر إلى معاقبة من يستحق العقاب سمع صوته وهو يقول «أنا أخو نورة معزي»، ويقصد نورة أخته الكبيرة وذلك لرجاحة عقلها وسداد رأيها، راجع طلال بن عبد العزيز: المرجع نفسه، ص ٨٥- ٨٦.

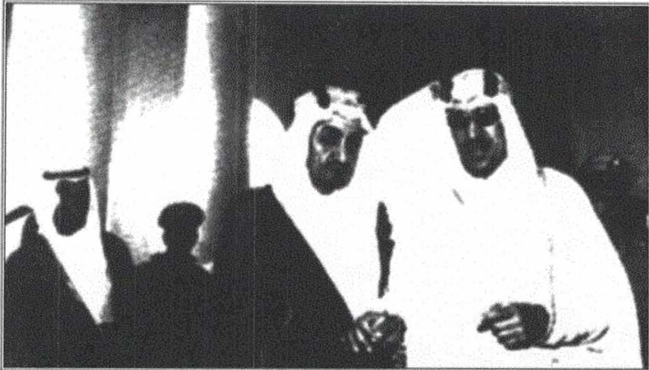
(٢) عقب صلاة الظهر يذهب الملك عبد العزيز إلى قصر المرحومة بإذن الله أخته الأميرة نوره بنت عبد الرحمن آل سعود، وهي الأميرة التي فاقت غيرها من النساء بحصافة عقلها، وسداد رأيها، وصدق مشورتها، فقد كان يحبها كثيراً لمكانتها المتميزة، ثم يجلس في قصرها في حلة الشمسية بالبطحاء حوالي الساعة لمقابلة أفراد الأسرة المالكة يوميًا وخاصة النساء منهم، حيث يبحث شؤونهن ويلبي طلباتهن، راجع محمد بن رشيد الماجد الدوسري: ذكريات أصغر مرافق للملك عبد العزيز، ص٦٩.

(٣) أما صلاة العشاء فكان يصليها الملك عبد العزيز إما في جبل «أبو مخروق» وهي =



الملك عبدالعزيز وولي عهده الأمير سعود في حفل افتتاح خط سكة الحديد بين الرياض والدمام في ١٨/١/١٣٧١هـ (أكتوبر ١٩٥١م).

= كانت منطقة خالية من العمران تبعد ١٠ كيلو عن الرياض والآن هي في وسط حي الملز أو يصلي العشاء في الديوان الملكي في «المربع» ثم يستمع إلى أخبار الإذاعات من الراديو عن طريق ديوان الصحافة برئاسة الأستاذ: يوسف ياسين، وهو أكبر مستشاري الملك ويمثل وزارة الخارجية في الداخل، والأستاذ: رشدي ملحس رئيس الشعبة السياسية، والأستاذ: على النفيسي، وهو المختص بالأخبار المذاعة والمقروءة باللغة العربية، وكان رئيساً للصحافة والأنباء في الديوان الملكي أكثر من نصف قرن، وله خبرة واسعة في جميع المجالات حيث كان والده عبد العزيز النفيسي الذي يقيم في «مكة المكرمة» آنذاك من الرجال الذي آزروا الملك وناصروه ووقفوا بجانبه خاصة عند دخوله «مكة المكرمة» لذا فهو من الرجال الذين يثق فيهم ويعتمد عليهم، راجع محمد بن رشيد الماجد الدوسري: المرجع نفسه، ص ٧١.



الملك سعود بن عبدالعزيز والملك فيصل بن عبدالعزيز
(ولي العهد آنذاك). في مكة المكرمة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م.

وقد دعاني سمو الأمير سعود إلى زيارته في قصره الخاص فكان أول ما ابتدرني به قوله «لن أنسي ماعشت أهل مصر وحفاوتهم بي كما لا تبرح عن مخيلتي تلك المكارم التي طوقت بها عنقي الحكومة المصرية، ولا أنسى على مدى الدهر عطف حضرة صاحب الجلالة الملك فؤاد الأبوي أثناء تشرفي بمقابلته السنية فهي صفحات خالدة ما فتئت أقلبها منذ وطئت قدماي ارض بلادي بعد عودتي من مصر، وأن قومي ليحفظون كل ذلك لمصر ويعدون كل مانلته من مظاهر الحفارة والتكريم إنما اختصوا هم به كأنها موجها لهم بالذات قال: ولن أنسى كذلك ان أخص بالشكر رجال الصحافة المصرية الذين برهنوا على عظيم محبتهم للإسلام وأهله. وإني لذلك لا زلت أدعو لمصر بكل خير وأتمنى من صميم قلبي احكام صلات الود والصفاء بين البلدين).

عقائد
النجديين في الحياة والخلود(*)

ومما يستحق الذكر عن عادات أهل نجد أنهم يعتقدون أن النجدي سواء أكان حضريًّا أم بدويًّا خلق لعبادة الله وطاعة شريعته وأنه كتب له في

(*) **ذكر الآلوسي في دين أهل نجد ومعتقداتهم وأعمالهم**: إعلم أن أهل نجد كلهم مسلمون موحّدون بل وجميع سكنة جزيرة العرب، وقد دخلوا في الإسلام في العصر الأول عند ظهور أنوار الشريعة الغراء، وهم على عقائد (السلف الصالح) فهم يعتقدون أن الله تعالى واحد لا شريك له في ملكه ولا ند ولا ضد ولا وزير ولا مشير ولا ظهير ولا شافع إلا من بعد أذنه، وأنه عز أسمه لا والد له ولا ولد ولا كفء ولا نسب بوجه من الوجوه ولا زوجة، وأنه غني بذاته فلا يأكل ولا يشرب ولا يحتاج إلى شيء مما يحتاج إليه خلقه بوجه من الوجوه، وأنه لا يتغير ولا تعرض له الآفات من الهرم والمرض والسنة والنوم والنسيان والندم والخوف والهم والحزن نحو ذلك، وانه لا يماثله شيء من مخلوقاته بل ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله وأنه لا يحل بشيء من مخلوقاته ولا يحل في ذاته منها بل هو بائن عن خلقه بذاته والخلق بائنون عنه، وأنه اعظم من كل شيء وأكبر من كل شيء وفوق كل شيء وعال على كل شيء البتة، وأنه قادر على كل شيء ولا يعجزه شيء يريده بل هو فعال لما يريد، وأنه عالم بكل شيء يعلم السر وأخفى ويعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، وما تسقط من ورقة إلّا بعلمه ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس ولا متحرك ولا ساكن إلّا وهو يعلمه على حقيقته، وأنه سميع بصير: يسمع ضجيج الأصوات بإختلاف اللغات، على تفنن =

لوح القضاء أجلاً محدوداً فعليه أن يعمل في حياته ما يرضي الله إلى يوم

= الحاجات، ويرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء؛ في الليلة الظلماء قد أحاط بسمعه بجميع المسموعات وبصره بجميع المبصرات، وعلمه بجميع المعلومات، وقدرته بجميع المقدورات، ونفذت مشيئته بجميع البريات، وعمت رحمته جميع المخلوقات، ووسع كرسيه الأرض والسموات، وأنه الشاهد الذي لا يغيب ولا يستخلف أحداً على ملكه، ولا يحتاج إلى من يرفع إليه حوائج عباده أو يعاونه أو يستعطفه عليهم أو يرحمه لهم، وأنه الأبدي الباقي الذي لا يضمحل ولا يتلاشى ولا يعدم ولا يموت وأنه المتكلم المكلم الآمر الناهي قائل الحق وهادي السبيل مرسل الرسل ومنزل الكتب قائم على كل نفس بما كسبت من الخير والشر ومجازي المحسن بإحسانه والمسيء باساءته، وأنه الصادق في وعده وخبره فلا أصدق منه قيلا ولا أصدق منه حديثاً، وهو لا يخلف الميعاد، وأنه تعالى صمد بجميع معاني الصمدية يستحيل عليه ما يناقض صمديته وأنه قدوس سلام فهو المبرأ عن كل عيب وآفة ونقص، وأنه الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه، وأنه العدل الذي لا يجور ولا يظلم ولا يخاف عباده منه ظلماً وهذا مما أتفقت عليه جميع الكتب والرسل وهو من المحكم الذي لا يجوز أن تأتي شريعة بخلافه ولا يخبر بشيء بخلافه هذا إعتقادهم في الإله عز وجل.

وأما إعتقادهم في النبي ﷺ فهم يعتقدون فيه أنه: محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب القرشي الهاشمي المكي عبد الله ورسوله إلى الخلق أجمعين، نبي الرحمة، وهادي الأمة، أرسله الله تعالى بالآيات الباهرة، والمعجزات الظاهرة، وكرمه سبحانه بطهارة الأعراق، وشرفه بما جبله عليه من مكارم الأخلاق التي نقض بها عوائد الفطر، وباين لها جميع البشر؛ من فروسيته وشجاعته، وبأسه، ونجدته وعزمه وهمته، وعلمه وحلمه وزهده وعبادته وإجابة مسألته ورضاه، وصبره وحمده وشكره وذكره وتفكره وإعتباره وتبصره وخوفه وخشوعه وتواضعه، وكرم آبائه وجدوده، وسخائه، وجوده وصمته وفصاحته وصدق لهجته، ورعايته للعهد ووفائه بالوعد وعدم تلونه ودوام طريقته وسننه، وأنصافه في معاملته وتقواه وأمانته وشفقته ورفقه، وحسن خلقه وخلقه، وجده، ووقاره، وضياء أنواره وحيائه ولينه وثقته ويقينه وعفوه ورحمته، وصفحه ورأفته، وقناعته وتقلله، وصدق توكله، وحباه من الحوض المورود، والمقام المحمود، واللواء والكوثر، والشفاعة في المحشر، والقرآن والتلاوة =

مماته وفي يقينه أنه منتقل إلى جوار ربه فيجازي على ما كسبته يداه إن خيراً

= والتاج والهراوة، والسيف والقضيب والناقة والنخيب والإسم الحسن والبراعة واللسن ، والذكر الرفيع، والحمى المنيع، والفرع الباسق، والكتاب الناطق، والقضية والأحكام والحنفية والإسلام والآيات المفصلات، والكلمات المنزلات، ومكة المكرمة، والمشعر الحرام، و الطعان والجلادة والجمعة والجماعة، والسمع والطاعة، والصلاة المكتوبة والزكاة المفروضة، والتهليل والآذان وشهر رمضان، والأمر بالمعروف والقربات والنهي عن الفواحش والمنكرات، والغلظة على الكافرين، وخفض الجناح للمؤمنين، والتفضل على المسيئين، والمعرفة بالأقدار، والرهبة من الجبار، والسبق في الذكر، والتقدم في الأصفياء، والتأخر في البعث، والختمة للأنبياء، مما دل بمجموعة على إثبات نبوته، وصدق مقالته، وتفضيله على جميع الخلائق والأنام، وتمييزه على سائر ولده آدم عليه السلام.

وذلك مع دلائله مفصل في كتبهم، وأعتقده كل من صغيرهم وكبيرهم، وكذلك يعتقدون أن إرسال الرسال حق، فهم يؤمنون بالله، وملائكته، وكتبه ورسله، لا يفرقون بين أحد منهم، ويؤمنون بالسؤال، والبعث، والحشر، النشر، والجنة، والنار، وبجميع ما انزل الله على رسوله ﷺ مجملاً وتفصيلاً وتفصيل ذلك في كتبهم أيضاً.

إعتقادهم في الآل والأصحاب ومن تبعهم بإحسان: جميع أهل نجد على إختلافهم في القبائل كما أنهم يعتقدون ما سبق كذلك يعتقدون في الآل والأصحاب، ما وردت به السنة والكتاب، ويؤمنون بما ورد في شأنهم من الفضائل، وما روي عنهم من الشمائل، غير أنهم طووا بساط المماراة في آل رسول الله ﷺ- وأصحابه، وتركوا العصبية التي هي من أوتار الباطل وأطنابه، فأولئك الآل الكرام هم الذين يتميز بحبهم إيمان المرء من نفاقه، والذين ورثوا النور المبين عمن خصّه الله بإشراقه، فالصلاة بهم تمامها وبالصلاة عليهم ختامها، ورحمهم موصلة برحم المكارم وذمامها، وأولئك السادات من الأصحاب الذين خلطهم بجلدته والظ بهم في شدته، أحبوا فيه وأبغضوا وأنفقوا له وأقرضوا وفرض عليهم الصبر معه على البأساء فما أعرضوا ولكل من هذين الفريقين مقام معلوم، وسهم في السبق والفضيلة غير مسهوم، ولم يزال أمراؤهم وعلماؤهم يأمرون بالأخذ على السنة السفهاء من الخوض فيما شجر بين آل النبي وأصحابه وإظهار العصبية التي =

فخير أو شرًّا فشر، ومن هنا يجئ علة انعدام الجرائم على اختلاف ضروبها

= تزحزح الحق عن نصابه، وترجعه على اعقابه، وليس مستندها إلا مغالاة ذوي الجهل، وربما نشأ منها فتنة والفتنة أشد من القتل، فأولئك السادات هم النجوم الذين كان بهم الإقتداء وبهم كان الإهتداء، ويأخذ عنهم ديناً وأدباً، لا يبلغ مد أحدهم ولا نصيفه ولو أنفق مثل أحد ذهبا، نعم: لا يغالون في حبهم كحب أهل البدع والضلالة، فذلك ما أنزل الله به من سلطان ولا أقتضته الرسالة.

والحاصل أن مذهبهم في أصول الدين مذهب أهل السنة والجماعة وأن طريقتهم طريقة السلف التي هي الطريق الأحكم وهي أنهم يقرون آيات الصفات والأحاديث على ظاهرها ويوكلون معناها إلى الله تعالى كما قال الإمام مالك في الإستواء، ويعتقدون أن الخير والشر كله بمشيئة الله تعالى ولا يكون في ملكه إلّا ما أراد وأن العبد لا يقدر على خلق أفعاله بل له كسب يترتب عليه الجزاء، وأن الثواب فضل، والعقاب عدل، ولا يجب على الله يعبده شيء، وأنه يراه المؤمنون في الآخر بلا كيف ولا إحاطة، وأنهم في الفروع على مذهب الإمام أحمد بن حنبل نضر الله وجهه ولا ينكرون على من قلد أحداً من الأئمة الأربعة دون غيرهم لعدم ضبط مذهب الغير كالشيعة والزيدية والكرامية ونحوهم، وأنهم لا يستحقون مرتبة الإجتهاد المطلق، ولا أحد يدعيها عليهم غير أنهم في بعض المسائل إذا صح لهم نص جلي من كتاب أو سنة غير منسوخ ولا مخصص ولا معارض بأقوى منه وقال به أحد الأئمة الأربعة أخذوا به وتركوا المذهب كإرث الجدة والأخوة فإنهم يقدمون الجد بالإرث وإن خالف مذهب الحنابلة ولا يفتشون على أحد من مذهبه، ولا يعترضون إلا إذا أطلعوا على نص جلي مخالف لمذهب أحد الأئمة وكانت المسألة مما يحصل بها شعار ظاهر كأمر الصلاة فإنهم يأمرون الحنفية والمالكية مثلاً بالمحافظة على نحو الطمأنينة بالإعتدال والجلوس بين السجدتين لوضوح دليل ذلك، بخلاف جهر الإمام الشافعي بالبسملة فلا يأمرون بالإسرار، وشتان بين المسألتين! فإذا قوي الدليل أرشدوهم إلى النص وأن خالف المذهب وذلك إنما يكون نادراً، ولا مانع عندهم من الإجتهاد في بعض المسائل دون بعض فلا مناقصة لعدم دعوى الإجتهاد المطلق وقد سبق جمع من أئمة المذاهب الأربعة إلى إختيارات لهم في بعض المسائل مخالفين للمذهب الملتزمين لتقليد صاحبه.. ثمن إنهم يستعينون على فهم كتاب الله بالتفاسير المتداولة المعتبرة، ومن أجلها لديهم =

حتى في الحرب، فهم يعتقدون أن من قتل عدوا لدين الله وشرعه نبيه

= (تفسير ابن جرير) ومختصرة (لابن كثير) وكذا البغوي و(البيضاوي) و(الخازن) و(الحدادي) و(الجلالين) وغيرها.

وعلى فهم الحديث بشروح الأئمة المبرزين كالعسقلاني والقسطلاني على البخاري، النووي على مسلم والمناوي على الجامع الصغير ويحرصون على كتب الحديث خصوصاً الأمهات الست وشروحها، ويستعينون بسائر كتب المذاهب في سائر الفنون أصولاً وفروعاً وقواعد ونحواً وصرفاً وجميع علوم الآلة ولا يتلفون من المؤلفات شيئاً أصلاً، إلا ما أشتمل على ما يوقع الناس في الشرك (كروض الرياحين) أو يحصل بسببه خلل في العقائد على أنهم لا يفحصون عن مثل ذلك إلا إذا تظاهر به صاحبه معانداً، وما إتفق عليه بعض البدو في إتلاف بعض الكتب إنما صدر منه لجهله، وقد زجر هو وغيره عن مثل ذلك ولا يرون سبي العرب ولم يفعلوه ولم يقاتلوا غيرهم ولم يروا قتل النساء والأطفال وأما ما يكذب عليهم ستراً للحق، وتلبيساً على الخلق، بأنهم يفسرون القرآن برأيهم ويأخذون من الحديث ما وافق فهمهم من دون مراجعة شرح ولا معول على شيخ وأنهم يضعون من رتبة النبي ﷺ وأنه ليس له شفاعة وأن زيارته غير مندوبة وأنهم لا يعتمدون أقوال العلماء وأنهم يتلفون مؤلفات أهل المذاهب لكون الحق والباطل فيها وأنهم مجسمة، وأنهم يكفرون الناس على الإطلاق من بعد الستمائة إلى هذا الزمان إلا من كان على ما هم عليه، وأنهم لا يقبلون بيعه أحد إلّا إذا أقر عليه أنه كان مشركاً وأن أبوية ماتا على الشرك بالله وأنهم ينهون عن الصلاة على النبي ﷺ، وأنهم يحرمون زيارة القبور المشروعة مطلقاً، وأنهم لا يرون حقًّا لأهل البيت، وأنهم يجبرونهم على تزويج غير الكفء لهم، إلى غير ذلك من الإفتراءات؛ فكل ذلك زور عليهم وبهتان وكذلك محض من خصومهم أهل البدع والضلال، بل أقوالهم وأفعالهم وكتبهم على خلاف ذلك كله، فمن روي عنهم شيئاً من ذلك أو نسبه إليهم فقد كذب عليهم وإفتري، ومن شاهد حالهم وحضر مجالسهم وتحقق ما عندهم علم قطعاً أن جميع ذلك وضعه عليهم وإفتراه أعداء الدين وإخوان الشياطين تنفيراً للناس عن الإذعان لا خلاص التوحيد لله تعالة بالعبادة وترك أنواع الشرك الذي نص الله على أنه لا يغفره وأنه لا يغفر ما دون ذلك لمن يشاء، فإنهم يعتقدون أن من فعل أنواعاً من الكبائر كالقتل للمسلم بغير حق والزنى والربا وشرب الخمر وتكرر منه ذلك لا يخرج بفعل ذلك =

الكريم دخل الجنة، ومن قتل منهم في سبيل الله فقد أجزل له ثواب عمله،

= عن دائرة الإسلام، ولا يخلد في دار الإنتقام، إذا مات موحداً لله تعالى في جميع أنواع العبادة... والذي إعتقدوه في رتبة النبي ﷺ، أن رتبته أعلى مراتب المخلوقين على الإطلاق، وأنه حي في قبره حياة مستقرة أبلغ من حياة الشهداء المنصوص عليها في التنزيل إذ هو ﷺ أفضل منهم بلا ريب، وأنه يسمع سلام من يسلم عليه وأنه تسن زيارته غير أنه لا تشد الرحال إلا لزيارة المسجد والصلاة فيه، وإذا قصد مع ذلك الزيارة فلا بأس، ومن أنفق أنفس اوقاته بالصلاة عليه الواردة عنه فقد فاز بسعادة الدارين وكفي همه وغمه كما جاء في الحديثن وأنهم لا ينكرون كرامات الأولياء يعترفون لهم بالحق وأنهم على هدي من ربهم مهما ساروا على الطريقة الشرعية، والقوانين المرعية، غير أنهم لا يستحقون شيئاً من أنواع العبادة لا حال الحياة ولا بعد الممات، بل يطلبون من أحدهم الدعاء في حال الحياة بل ومن كل مسلم فقد جاء في الحديث «دعاء المرء مستجاب لأخيه» ويثبتون الشفاعة للنبي ﷺ يوم القيامة حيثما ورد وكذا سائر الأنبياء والملائكة والأولياء والأطفال حيثما ورد أيضاً ويسألونها من الله تعالى المالك لها والآذن فيها لمن شاء من الموحدين الذين هم أسعد الناس بها كما ورد فانهم يقولون متضرعين إلى الله تعالى: اللهم شفع نبينا محمداً ﷺ فينا يوم القيامة أو عبادك الصالحين أو ملائكتك ونحو ذلك ولا يلزم أن يكونوا مجسمة وإن قالوا بالجهة كما ورد الحديث بها، ويقولون فيمن مات تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون، ولا يقولون بكفر من صحت ديانته وأشتهر صلاحه وعلمه وورعه وزهده وحسنت سيرته وبالغ في نصح الأمة وأن كان مخطئاً في هذه المسألة أو غيرها (كابن حجر الهيتمي المكي) رحمة الله، فإنهم يعملون كلامه في (الدر المنظم) ولا ينكرون سعة علمه، ولهذا يعتبرون ما بقي من كتبه كشرح الأربعين والزواجر وغيرها ويعتمدون على نقله. هذا ما هم عليه وقد كتبوا في ذلك عدة رسائل خاطبوا بها من له عقل وعلم وهو متصف بالإنصاف، خال من الميل إلى التعصب والإعتساف؛ ينظر ما يقال، لا إلى من قال. وأما من شأنه لزوم مألوفة وعادته سواء كان حقًّا أو غير حق مقلداً لهو ممن قال «إنا وجدنا أباءنا على أمة وأنا على أثارهم مقتدون» عادته وجبلته أن يعرف الحق بالرجال، لا الرجال بالحق، فلا يخاطب هذا وأمثاله فجنود التوحيد بحمد الله منصورة، وراياتهم بالسعد والإقبال منشورة، وما كتبناه في هذا الحاصل هو =

فترى البدوي منهم وهو في سبيل الجهاد يحمل أكفانه وهو ممتلئ يقيناً وإيماناً بصحة عقيدته، ولعل ذلك كان سبباً في بذل مجهودهم في الحروب واندفاعهم إليها بغير تردد حتى إذا سقط أحدهم في حومة الوغي قتيلاً كان آخر ما يصل إلى سمعه ممن بقي حيًّا «واحليله، لقد سبقتني إلى الجنة» أما في حالة هزيمة عدوهم واطباقهم عليه تراهم يقولون مهللين «يا أهل التوحيد يا أهل التوحيد. وإياك نعبد وإياك نستعتين» ويطلقون على دوي الرصاص- ريح الجنة- حتى إذا أصيب أحدهم أثناء القتال في ظهره عدوه جباناً يحاول الفرار لا يستحق عندهم تكريماً حتى ولا الدفن.

أما عقائدهم الدينية فهي كما أسلفنا اتباعهم تعليم السنة النبوية فلا يقيمون المآتم لموتاهم ولا يشيدون القباب على الأضرحة ولا على المساجد فهم يعتقدون أن الموتى في هذه الدنيا لا يستحقون تكريماً ولا تعظيماً من جانبهم ما داموا سيبعثون بعثاً جديداً وينعمون بنعيم الجنة.

= مضمون رسالة كتبها أحد فضلاء علماء نجد وهو الشيخ (عبد الله بن العلامة والشيخ محمد بن عبد الوهاب) عليهم الرحمة، وقد قرئت عند دخول ابن سعود) في (الحرمين) الشريفين بمحضر علماء المذاهب الأربعة وبمسمع منهم، فمن الواجب على طالب معرفة الحق وإدراك الحقائق أن لا يبادر بالإنكار قبل التبصر، ولا يحكم على شيء قبل الوقوف على حقيقة الحال، فالخطأ في ذلك عظيم.

فلا تحكم بأول ماتراه   فأول طالع فجر كذوب

والقصد بما ذكرناه التنبيه على خطأ من نسب إلى القوم ماهم بريئون منه مما يخل بالديانة حتى أساء الظن بقسم عظيم من الأمة العربية وأنطوى على بغضهم الذي هو من أعظم أسباب النفاق. وغالب من أشاع ذلك هو أهل البدع والأهواء الذين إتخذوا دينهم لهوا ولعباً وكذبوا بأقوالهم وأفعالهم على الدين المبين الذي هو بعيد عنهم بمراحل، وهم الدجالون الجالبون على الإسلام كل عار وإلّا فأهل الإيمان هم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه. راجع الآلوسي: تاريخ نجد، ص ٤١- ٤٩.

ولعل في هذا بعض الشبه من عقيدة البعث بما كان يعتقده قدماء المصريين بما هو مسطور على توابيت مومياتهم وما كانوا يعدونه من الملابس والأطمعة ونحوها استعداداً ليوم النشور، على أن هناك بطبيعة الحال فارقاً كبيراً بين العقيدتين لا يخفى، فإن قدماء المصريين بتحنيطهم جثث موتاهم واعدادهم الطعام ونحوه إنما كانوا يعتقدون أن موتاهم سيبعثون بأجسامهم وهياكلهم البشرية بعينها في هذه الدينا، ولكن أهل نجد يعتقدون كما يعتقد أهل السنة والجماعة من أهل المذاهب الأربعة بالبعث المعروف في حياة غير هذه الحياة.

حياة النجديين الاجتماعية[1]

أن أهل نجد ولا سيما سكان باديتها يعدون الأرز طعاماً أساسيًّا لهم بمثابة الخبز عند سائر الشعوب الأخرى، ولما كان هذا النوع من الطعام

---

(١) أما عن معايش أهل نجد وأقواتهم، فأهل نجد ينقسمون إلى اهل حضر وبدو الحضريون قليلون بالنسبة إلى أهل باديتهم، وغالب العرب كذلك فإنهم يألفون البادية أكثر من إلفهم إلى البلاد والقرى، ولم يزالوا يمدحون البوادي في شعرهم ومنظوم كلامهم ومنثوره فأما أهل الحضر فمعايشهم من التجارة والحرث والنخيل والبقر والغنم والزراعة والصنائع، وأقواتهم السمن وألبان البقر والغنم والحنطة والشعير والأرز والذرة والسمسم ونحو ذلك، وغالب قوتهم التمر الذي يعز مثله في البلاد، وأما أهل البوادي فمعايشتهم من الغنم والبقر والإبل وأكل لحومها وشرب ألبانها، وغالب معايشهم على الياربيع والأرانب ونحو ذلك، وأهل نجد عموماً يأكلون الجراد بل هو أحسن ما يدخرونه لأقواتهم وألذ ما يصطفونه لأنفسهم، وهكذا سكان الخطة الإحسائية، فقد أخبرني الأخ وهو يومئذ هناك أنه منذ أيام جاءت إلى هذه الديار رجل جراد عظيم أحمر أجسم جرماً بقليل من جراد العراق، وهو مع كونه قد أضر بزروع الأحساء وأكل بعضها عن آخره غير ان الأهالي فرحوا به فرحاً شديداً لأكلهم له ولم يبق أحد من الأهالي من شفيع ولا وضيع إلّا وقد خرج لصيده فمسك كل على قدره وحملوها الحمير وأتوا بها إلى بيوتهم فطبخوه بالملح ثم يبسوه وأدخروه وقد هانت أسعار كل شيء بواسطته ولم يترق إلا الملح، قال: وإني أردت اكل جرادة واحدة لأتعرف طعمه فما قدرت معاذ الله أن تقبله نفسي، فسبحان من غاير بين الطباع والأمزجة، إنتهي ولهم رغبة في شرب شراب البن وهم يحسنون عمله ويجيدونه كل الإجادة وعليه قول القائل:

يقول:

شـراب الـبـن فـيـه مـرارة　　وشربه صافي الشهد أحلى وأمثل!

فقلت:

عـلـى مـا عـبـتـه بـمـرارة　　قد إخترته فإختر لنفسك ما يحلو!

والبن يأتيهم من قبل الهند ويصرف قسم عظيم منه في بلادهم وليس لأهل نجد كبير رغبة في السياحة والسفر إلى البلاد البعيدة كبلاد الإفرنج وما شاكلها ولذلك ترى المحترفين بالتجارة أقل من غيرهم، راجع الآلوسي: تاريخ نجد، ص ٣٩-٤٠.

يستلزم تناوله بالملاعق فإن النجديين لايستعملون سوي قبضة أيديهم. اما سائر ألوان الطعام الناضجة الأخرى فلا يمكن أن تخلو من اضافة مسحوق «الكركم» عليها- ويسمونه البزار- ومن كثرة الألبان هناك فانهم لا يعرفون الجبن ولكنهم يصنعون شيئاً كثير الشبه به يسمونه «البقل» وطريقة صنعه أنهم يغلون اللبن حتى يجف ومن ثم يضعونه في الهواء فيزداد جفافاً ويقطعونه قطعاً صغيرة بعد أن يضيفوا عليه قليلاً من الملح، ومن عوائدهم أن لا يتناولوا البصل نيئاً وحجتهم في ذلك عدم مضايقة المصلين برائحته. وهم لايهتمون بتصنيف الطعام ألواناً ولا يهتمون بطهي الحلوى تمشياً على ما كان عليه السلف الصالح[١].

ولا يوجد في نجد كلها سوي طبيب واحد هو طبيب الملك الخاص[٢] ومع أنه وحيد زمانه هناك فإن عمله قليل والعلة في ذلك أن أسقام الناس تكاد تكون معدومة بسبب تقشفهم في المعيشة وفي تناول الأطعمة ولأن يد الطبيعة هي التي تقوم مقام الطبيب هناك، يدلك على ذلك أن الوفيات هناك قليلة جدًّا ويندر أن يموت شخص في سن الأربعين أو الخمسين، ولهذه المناسبة أذكر مرة أن جاء بدوي إلى طبيب الملك أثناء وجوده وطلب إليه أن يصف دواء لامرأته التي كانت تقيم في قلب البادية وعلى مسير ثلاثة أيام فاعتذر الطبيب عن وصف الدواء إلّا إذا عاين المريضة وشخص داءها فما كان من الاعرابي إلّا أن هزأ بالطبيب والدواء وقال لعلها تكون قد شفيت فلا حاجة بنا إليك وانصرف لسبيله وجاء بدوي آخر كان قد أصيب برصاصة في جانب من كتفه شلت ساعده الأيمن فلما أفهمه الطبيب أن اخراج الرصاصة يستدعي التخدير

(١) يذكر حافظ وهبة أن شيوخ القبائل والأفراد يأكلون جميعاً الأرز واللحم واللبن والتمر، راجع حافظ وهبة: في قلب جزيرة العرب، ص ١٢.

(٢) في سنة ١٩٢٣م عين الملك عبد العزيز أول طبيب خاص له وهو سوري الجنسية، راجع حافظ وهبة: في قلب جريزة العرب، ص ١٢٣.

واجراء عملية جراحية ضحك وقال «لا والله لن أموت إلّا بريح الجنة- ويقصد بذلك برصاصة أخرى لا أن يموت على مشرحة الطبيب»[١].

---

(١) ذكر حافظ وهبة في كتابه عنوان بإسم الطب في بلاد العرب قال فيه: لا يزال الاعتماد في بلاد العرب وسواحل خليج فارس العربية على الطب القديم وتجارب المجربين ويرجع الفضل في إيجاد الأطباء الحديثين في بلاد العرب إلى الأمريكان، والإنجليز في البصرة وخليج فارس، وإلى الأتراك في الحجاز واليمن والأحسا، وللملك عبد العزيز في نجد، كما يرجع الفضل للحكومة البريطانية والتركية في إيجاد نظام الكورنتينات في جميع السواحل العربية لوقاية السكان من الأمراض الفتاكة وحصر المرض في دائرة ضيقة ومع ذلك فالعرب على العموم لم يقبلوا على التطبيب الحديث إلا في الجراحة فقط، وهذا من نحو عشرين سنة فقط، أما في الأمراض الباطنية فلا يكادون يعترفون بفضل الطب الحديث، ولا يزال القسم الأكبر منهم يعتمد على الأعشاب وعلى معالجات ابن سينا وتلاميذه، وقد كان ولا يزال كثيرون يحترفون التطبيب العربي، وكان منهم رجال مشهورون بإخراج العظام المكسورة وتركيب عظام غيرها بدون إستعمال البنج بالطبع، وهم يستعملون الكي في كثير من الأمراض ولا سيما الكلب، وفي الإصابة بالرماح يستعملون نوعاً خاصًا من الكي، وهو أن تحفر حفرة صغيرة ثم تشعل فيها النار، حتى إذا خفت حرارة النار وضعوا العضو المصار داخل الحفرة بطرية خاصة؛ وهي وإن كانت من العمليات الشاقة، إلّا أنها في الغالب يعقبها الشفاء، أما التلقيح ضد الجدري فقد إنتشر كثيراً في البحرين والكويت والإحساء وقد أخذ ينتشر في السنين الأخيرة في نجد والحجاز ويرجع الفضل في عدم إنتشاره في نجد بسبب الجهود التي يبذلها الملك عبد العزيز، وقد كان العلماء مباحث طويلة فيه، وفي أنواع التلقيح ضد الطاعون والكوليرا وغيرها، هل هي جائزة أو غير جائزة، ولا يفهم من هذا أن هذه المباحث كانت من علماء نجد فقط؛ بل إن علماء البحرين والإحساء ومصر كان لهم محاولات طويلة في هذا الموضوع، ولم يقبل أهل عمان وضع كرنتينة عندهم وقاية من القادمين من البصرة حين إنتشار الكوليرا، ولم يقبل أكثرهم التطعيم من الجدري وقت انتشاره، ولا تزال هذه الأمراض تفتك بالسكان الجهلاء من وقت لآخر، ومن البداهة في بلاد واسعة كجزيرة العرب لم ينتشر فيها ذيوع الطب الحديث أن يسود سوق التجارب وفيها المفيد النافع والضار الذي لا تؤمن مغبته، فمن الأدوية الشائعة =

ومن أعجب العجب أن أهل البادية الذين يقطعون القفار الشاسعة بلا

= للأمراض المستعصية، ولا سيما الأمراض العصبية كتابة سورة من القرآن في صحن ثم محو الكتابة بماء الورد ثم سقيها للمريض، وفي البحرين والكويت يتخذ بعض الأفاقين هذا النوع من التداوي تجارة رابحة، ومن الأدوية الشائعة فيها لكثير من الأمراض حتى القروح المستعصية أن يذهب أحد أقرباء المريض ومعه فنجان مملوء بالماء أو السمن ثم يقف على باب المسجد لينفث فيه كل المصلين عند خروجهم من المسجد، فمنهم من ينفث بلا قراءة، ومنهم من ينفث بعد قراءة ما يريد من قرآن أو دعاء، وقد كانوا ولا يزالون ينهون عن تنظيف العين المصابة بالرمد الصديدي الذي يسمي «أبو طبيق»، ويكتفون بمنع الطفل المريض من بعض المآكل، وقد كانت النتيجة إصابة الكثير بالعمي أو غيره من الأمراض المستعصية، وصار يصف لكل مريض مصاب بالدوستاريا أن يذهب في السفينة ويجري عليه ما جري عليه، وقد أخبرني علي الفهد الخالد من كبار أهل الكويت، أن رجله أصيبت بقرحة أستعصت على الدكتور «بنيت» الطبيب الأمريكاني بالبصرة وأشار عليه بقطعها، فذهب إلى مزرعته بالبصرة يسوده الحزن والغم على هذه المصيبة، فلما رأته إحدى الفلاحات إستكشف أمره وهي تعهد مرحاً فرحاً، فأخبرها بأمره وبأمر الطبيب وبأن حياته في خطر، فقالت لا تحزن لقد جربت الطبيب نحو شهرين أفلا تجرب دوائي أسبوعاً، فبعد تردد قبل، فأحضرت له مرهماً من مختلف الأعشاب، وكم كانت دهشته حين شفي تماماً بعد أسبوعين، وقد عرض أمره على الدكتور بنيت فوجد القرحة قد زالت تماماً ولم يبق أي أثر للتقيح، وأخبرني المذكور أن الدكتور حاول أن يتعرف على الأعشاب المذكورة ليختبرها علميًّا وعرض جائزة كبيرة على المرأة فلم تبح له بسرها، وهنالك نوع من الطب له صفة التقديس؛ وهو ما يسمي بالطب النبوي، فقد ورد في البخاري وغيره من كتب الحديث بعض الأدوية التي كان الرسول ﷺ يستعملها أو يوصي بإستعمالها، فأخذت هذه الوصفات صفة التقديس، وكثير من هذه الوصفات لا تنكر فائدتها، ولا يزال الطب الحديث يأخذ بقسم منها، ولقد تكلم العلّامة ابن خلدون على الطب النبوي في مقدمته فقال: والبادية من أهل العمران طب بينونه في غالب الأمر على تجربة مقصورة على بعض الأشخاص متوارثاً عن مشايخ الحي وعجائزه، وربما يصح منه البعض إلّا أنه ليس على فائدته طبيعي ولا على موافقة المزاج، وكان عند العرب من هذا الطب كثير، =

دليل صناعي أو نحوه بل بمراصد الشمس والقمر والنجوم وألوان رمال

= وكان فيهم أطباء معروفون: مثل الحارث بن كلدة وغيره، والطب المنقول في الشرعيات من هذا القبيل، وليس على الوحي في شيء، وإنما هو أمر كان عادياً عند العرب؛ فإنه ﷺ إنما بعث لتعليمنا الشرائع، ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العادات، وقد وقع له في شأن تلقيح النخل ما وقع فقال: أنتم أعلم بأمور دنياكم، فلا ينبغي أن يحمل شيء من الطب الذي وقع في الأحاديث الصحيحة على أنه مشروع، فليس هنالك ما يدل عليه، اللهم إلا إذا إستعمل على جهة التبرك، فيكون له أثر عظيم في النفع، فيكون من آثار الإيمان وليس من الطب المزاجي، ورأي ابن خلدون وإن كان يجد له أنصاراً ممن ضربوا بسهم في العلوم الطبية الحديثة، فإن أنصاره قليلون في جزيرة العرب.

وإن سنة ١٣٤٢هـ سنة ١٩٢٣م تعتبر فتحاً جديداً للطب الحديث في جزيرة العرب، ففي هذه السنة عين الملك عبد العزيز أحد الأطباء السوريين طبيباً خاصًّا له وللقصر أيضاً، ولما تم لجلالته فتح الحجاز سنة ١٣٤٤هـ سنة ١٩٢٥م نظم الإدارة الطبية فيها على أحدث الطرق، وجعل شعباً في نجد والأحساء وعسير فضلاً عن مدن الحجاز المهمة، وهي تقوم بمهمتها خير قيام حسب ما تسمح به موارد البلاد المادية، وإذا كنا نأسف لإنحاط المستوي العلمي الطبي في البلاد العربية فلا يجب أن ننسى فضل العرب وما قدموه للعالم في فن الطب والعلاج، وما أسسوه من مستشفيات لمختلف الأمراض في بغداد والشام والقاهرة والأندلس، فلقد كانت جامعاتهم في أهم المدن العربية مرجع للطلاب الأجانب كما هي حال جامعات الغرب اليوم، ولقد ظل الطب العربي مرجعاً للعالم مدة غير قصيرة إلى أن حلت النظريات والتجارب الحديثة محل النظريات القديمة، ويجدر بنا ونحن نكتب التاريخ والحقيقة أن نذكر الخطوات الواسعة التي تسير بها إدارة الصحة في المملكة العربية السعودية، والبلاد العربية الأخرى مثل البحرين والكويت فقد شيدت المستوصفات في كثير من البلاد التي كانت محرومة كما أسست بعض المستشفيات في بعض الأنحاء النائية، وقد سنت سنة حسنة في إنشاء المستوصفات النقالة أو الطبيب الرحالة المتنقل من بلد إلى بلد آخر فقد أدت هذه الطريقة إلى النهوض بالحالة الصحية نهوضاً لا ينكر، ويا حبذا لو أن إدارة الصحة تعلن حرباً لا هوادة فيها على الملاريا في المناطق التي تنتشر فيها الملاريا وتقتدي في ذلك بالأطباء الأمريكيين في مناطق =

الأرض يستطيعون أن ينبئوك بان أشخاصاً يتحدثون وهم على بعد نصف يوم على ظهور الإبل في الصحراء. ولعل ذلك يرجع إلى شدة حاسة السمع والبصر عندهم وصفاء أذهانهم وإلى قوة اتجاه الريح الذي ينقل نبرات الأصوات مع الأثير.

والمواقيت هناك بالحساب الهجري وقد يريد بعضهم أن يذكر لك مثلاً العام الذي انقضي منذ عشر سنوات فبدلاً من أن يقول لك بالرقم يذكر لك أهم وقائع ذلك العهد كأن يقول- سنة الاحساء أو سنة الحجاز- وهلم جرا. ولا يمكن أن يخطئ أحدهم في فهم عدد السنوات التي مضت على ذلك الحادث أو أن يكون جاهلاً لأهم ما جرى من وقائع تلك السنة. أما نطقهم العربي فلهجتهم تختلف عن لهجة عرب مصر بل وعرب الحجاز ايضا فهم يبدلون الكاف تاء مشددة، ومن عاداتهم أنهم قبلما يبدأ أحدهم بمحادثة آخر يدعو له بطول العمر وهناك اختصار لجملة أو لعدة جمل تقع في حرفي «س م» بفتح السين وسكون الميم فعندما يقدم الساقي القهوة بدل أن يقول «بسم الله» يختصرها بقوله «سم» وإذا أراد أحدهم أن يصدع بأمر فبدل أن يقول سمعا وطاعة أجاب بكلمة «سم» وإذا ناديت على وأراد أن يقول لك أني سامع هتف قائلاً «سم» وهلم جرّا. وللقراءة عند أكثر قرائهم نغمة مخصوصة يخيل على سامعها من غير

= مناجم البترول على الخليج العربي، إنها بلا شك ستجد تعضيداً من السكان ومن الحكام المحليين ومن الحكومة المركزية، وإذا نهض العرب مرة أخرى وأخذوا بقسطهم العلمي في الطب وسائر العلوم المادية فإنهم لا يأتون ببدعة، بل يعتبرون كمحيين لعهد أجدادهم الذين ملكوا ناصية العلم حقبة من الزمن، وقدموا للإنسان خدمة لا تنكر- إن ذلك دين في عنق العالم العربي يجب عليه وفاؤه، إن النشاط العربي والتطورات السريعة التي نراها في البلاد العربية تجعلنا متفائلين خيراً من المستقبل، فاللهم حقق الآمال، راجع حافظ وهبه: المرجع نفسه، ص ١١٨-١٢٣.

النجديين أنه يستمع «لأخنف» ولكنهم يفعلون ذلك مبالغة في الخشوع ولا سيما عند قراءة كتاب الله العزيز.

ولإسدال اللحي عندهم شأن كبير فهم يعدون من حلق لحيته مخالفاً لسنة رسول الله، وقد قص عليَّ أحدهم وهو يعبث بلحيته اعتزازاً بها- بعد استئذان الدكتور محجوب- أن اثنين اختلفا في أمر أطالة اللحية من عدمها وكان أحدهما أجردها فذهبا إلى بيت رسول الله ﷺ يحتكمان فلما طرقا باب الدار أجابتهما السيد عائشة رضي الله عنها بأن الرسول غائب فذهبا، ثم عادا وطرقاه ثانياً وكان ﷺ لم يعد بعد فأرادت السيدة عائشة أن تقسم بأن لم يعد فقالت (والذي فضل الرجال باللحي أن الرسول ليس موجوداً) وهكذا اكتفى ذو اللحية بهذا الحكم وانتصر على زميله وانتهى الأمر.

قبائل بني صخر(*)

أما قبائل بني صخر النازلة في حدود مملكة نجد من ناحية شرق الأردن فهي لا تزال على فطرتها لا تعرف من الإسلام إلا أسمه وقلما تجد من يعرف أداء الصلاة بفروضها ومع أنهم خاضعون لحكم الملك ابن سعود الآن إلّا أنهم لا يزالون في عزلتهم التي كانوا عليها قبل دخولهم في حكم جلالته فلهم عوائدهم وتقاليدهم ولهم أزياؤهم وأهم

(*) عن قبائل بني صخر ذكر عمر رضا كحالة في معجمه فقال عشائر بدوية كبيرة كانت تقطن في جهة العلا بالحجاز، فنزحت إلى بلاد الكرك، ولما ضايقتها عشائرها إنتقلت إلى البلقاء، فضايقتها العدوان فإرتحلت إلى جهات غزة، وإتحدت هناك مع عشيرة الوحيدات، ونهبت إياها جردة الركب المصري سنة ١١٩٧هـ، وقتلوا أميرها موسى باشا المعراوي، فخرج إليهم حسين باشا المكي أمير لواء غزة فقتل منهم عدداً كبيراً، ونهب أبلهم، وخيولهم فعادوا إلى البلقاء فقراء ضعفاء، وكانت عشيرة العدوان متضايقة من حلف عباد، فرحت بهم، وحالفتهم وقد إنضم لحلفهم الغزاوية في فلسطين، والفريحات في جبل عجلون وفي هذا الوقت خرجت قبيلة عنزة من نجد، فردها بنو صخر الذين عدوا سوراً للبلقاء وصار شيخهم يلقب بسلطان البرية، وقد كان لبني صخر صلة قوية بنابلس وتقع ديارهم في المشرفة ويحدها شرقاً درب الحج وغرباً حمايدة وعباد وشمالاً البلقاء وجنوباً أرض البهون وتعد ٥٠٠٠ بيت وينقسم بنو صخر إلى فخذين هم الطوقة والكعابنه، عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب، جـ٢، ص ٦٣٤- ٦٣٥.

ما في أمرهم أنهم لا يأكلون القمح طحينا بل يسلقونه على مثال «البليلة» المعروفة في مصر ويعتقد بنو صخر أنهم مصريون أصلاً وبنو عمومة للمصريين وقد كان جدهم الأول مصريًا وقد كان لهذا الاعتقاد أثره معي فقد استقبلني بعض مشايخ تلك القبيلة بأجلى مراسم التهليل والترحيب وشرعوا يقيمون الحفلات كأنما جاءهم قريب جليل القدر من ضفاف النيل.

وقد شهدت حفلة عرس وقد جيء بقطعة من خشب العود وأمسك بإحدى طرفيه كل من الزوج ووالد الزوجة ومن ثم أحاط بهما الحاضرون وهنا قال والد الزوجة (وحياة العود والرب المعبود جوزت ابنتي) فيرد عليه الزوج قائلاً (تجوزت ابنتك) وعلى أثر ذلك تنحر الذبائح وتقام المآدب وينتهي الأمر. وإلى هنا نكون قد أنتهينا من وصف بلاد نجد، طرقها ومسالكها، عوائدها وتقاليدها، ودينها وطبائع أهلها من حضر وبدو، وقد رأينا قبل مبارحتنا الرياض عاصمة نجد أن نحظي بمقابلة جلالة الملك ابن سعود كي نحصل منه على حديث مستفيض في شؤون بلاده العامة من سياسية واجتماعية ونستطلع رأيه في شأن الخلافة الإسلامية وما جرى في حادث الاعتداء على المحمل المصري والنظام الجديد الذي وضعته حكومته لحكم الحجاز بعد فتحه ورأيه في توظيف المصريين في مناصب دولته، وقد أبدى جلالته عظيم ارتياحه إلى محادثتنا فيما تقدم فالي القراء هذا الحديث[١].

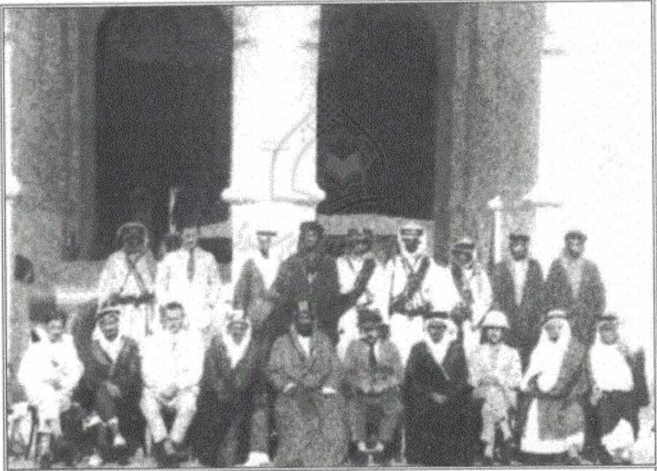
---

(١) ذكر الشيخ عبد الله بن محمد الغازي في كتابه ما وقع في حادث المحمل وأفرد له عنوان مخصوص بعنوان حادثة مني الواقعة بين ركب المحمل المصري وبين النجديين ثم قال توجه المحمل المصري من مكة مساء الثامن من ذي الحجة سنة ١٣٤٤هـ، قبل الغروب قاصداً عرفات وكان يحيط به بعض نفراً من حرس جلالة الملك، الناس من المرور في طريق المحمل ليكون رجال المحمل في راحة من الزحام حتى بلغ آخر مني ونزل هناك وكان النجديون أكثر قرب في ذلك المكان، فشرع رجال الركب تضرب الأبواق، فلما وصل أصوات تلك الأبواق إلى مسامع =

= النجديين أقبل بعض منهم، إلى جهة المحمل ينكرون بالسنتهم ضرب الأبواق فردهم رجال الحرس الملكي الخاص بعنف وشدة فلم ينتهوا، وكان ذلك قريباً من بهو جلالة الملك فأوصل الجند الخبر لجلالة الملك فأمر نائبه نجله الأمير فيصل السير إلى محل المحمل ليمنع أي إعتداء هناك، ولكن سموه سار مسرعاً بغير أن يأخذ قوة معه فلما وصل المكان وجد بعض البدو يتنابذون ألفاظ السباب ويتبادلونها وتجاوز بعضهم إلى رمي الحرس ببعض الحجارة، فطلب من رجال المحمل أن لا يتجاوزوا موقفهم وأنكفأ على البدو يعرفهم بنفسه لأن الليل كان قد أقبل ويطاردهم بمن معه من حرسه وحرس جلالة الوالد، وأرسل لجلالة الوالد يطلب منه الزيادة على ما معه، ففي الحال أمر جلالة الملك أكبر أنجاله الأمير سعود أن يذهب نجده لأخيه بقوة من الجند وبينما الأمير سعود يسرع بجمعه والأمير فيصل يكافح بنفسه وهو يهدئ روع رجال المحمل لم يشعر الناس إلا والرصاص ينفذ من أفواه بنادق جنود المحمل، ووراء ذلك قنابل المدافع تضرب يمنه ويسره، ولو تريث رجال المحمل حتى تصل القوة لما أصابهم شيء ولا وقع ما وقع هناك، عظم الشر وقوة المحمل لا يزيد عددها عن الأربعمائة جندي وعدد الذين كانوا هدفاً لنيران حرس المحمل لا يقلون عن التسعين ألفاً من الحجاج النجديين وكلهم ألوا بأس شديد، وقد حصرت النيران بعضهم ولم يبق عليهم، إلّا أن يقابلوا الشر بمثله في تلك الساعة الرهيبة في ذلك الخطر المحدق الذي لم يكن ليحتاج إلا لقدح زناد بسيط في ذلك الموقف المرعب المزعج عرف الناس جلالة الملك وسمع جلالته أطلاق البنادق والمدافع فخرج بساعته من سرادقه حيث النار ترمي بشررها في ذلك الليل البهيم، وتقدم ومعه أولاده وأخوته وأبناء عمومته وكل من يدلي إليه بقربه أو نسب مشى بهم إلى حيث النيران تطلق فهم يقترب من المحمل إلا وقد أناخ عليه من كل جمع من الإخوان ركب يسألونه أمره وأخبروه أن قتلاهم يضرجون بدمائهم وكان جلالته إذا ذاك في أشد درجات التأثير فالتفت إلى الإخوان وقال: أذكركم الله وهذا الموقف أذكركم دينكم حميتكم الإسلامية وشيمتكم العربية، إن حجاج بيت الله ضيوفنا وهم في وجوهنا فلا تمد إليهم يد بأذى إنني سأقف أمام ركب هذا المحمل وأعلموا أنه لا تمد إليه يد بسوء وفي هذا العنق دم يجري، سمع الإخوان هذا الكلام وكانت النار تكاد تخرج من أنوفهم وكان ذلك النداء برداً وسلاماً، وحملوا سيوفهم وكروا على المجتمعين حول المحمل يردونه بسيوفهم وأخذت الجموع ترجع... ولم يصب أحد من جند المحمل غير رجل أصيب =

= بحجر في أنفه ورجل أصابته رصاصة طائشة في يده وقد بلغ عدد الذين قتلوا من أهل نجد خمسة وعشرين وقتل من الإبل أربعون بعير وسكنت الفتنة وسار المحمل تحف به قوة الحرس حتى وصل عرفات بسلام، راجع عبد الله غازي: إفادة الأنام بتاريخ البلد الحرام، ص ٣٢٩- ٣٣١.

حديث الملك عبدالعزيز عندما تم تحرير الحجاز من الشريف الحسين بن علي



الملك عبدالعزيز مع الوفد البريطاني في جدة في عام ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٥م.

بدأ جلالته حديثه قائلاً أرجو أن لا تكونوا قد تأثرتم بشيء مما بدا لكم من خشونة بعض سكان البادية وجفاء طباعها أو شدة تعصبهم للدين فذلك أمر يرجع إلى الفطرة التي نشأوا عليها على أني شخصيًّا وكبار



الملك عبدالعزيز مع سمو الشيخ حمد بن عيسى آل خليفة، أمير البحرين أثناء لقائهما في أبو حدرية سنة ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م.

أقطاب دولتي لسنا على شيء من هذا يدلك أن مندوبي الدول ذات الشأن بنا يدخلون معنا في مفاوضات طويلة فلا نشتد وإياهم أو نسلك معهم مسلكاً ينأي بهم عنا بخلاف ما شاهدتموه أنتم شخصيًّا إذا جرت لكم أحاديث كهذه مع قبائل البدو الذين هم على الفطرة، وأني أحمد الله أن شعبا كهذا يدين بالولاء لمليكه ويرفع كلمته عند الشدة ويبذل مهجه عند الضرورة ويقنع بالقليل من أود الحياة ولعل أخبار حربنا مع الشريفيين وما أبداه شعبنا من بسالة وأقدام وتفان في رفع راية مليكه أكبر شاهد على ما أقول.

سألنا جلالته - وهل تتنازلون جلالتكم ببيان الأسباب المباشرة لقيام الحرب الحجازية الأخيرة؟

فأجاب: نعم. وإني أقسم لك بأني ما كنت أبغي الحرب معهم لولا أن الشريف حسيناً هو الذي الجأنا إلى قتاله بما ارتكبته عصابته في السنوات الأخيرة من سوء معاملة حجاج بيت الله الحرام، ليس بالنسبة

للنجديين وحدهم بل وسواهم من أمم الإسلام الأخرى، ولقد صبرنا عليهم صبراً جميلاً وفوضنا الأمر فيهم لله تعالى فما ازدادوا إلّا بغياً وعدواناً وأنذرناهم بداءة بدء بسوء المصير ولكنهم تمادوا عتيا وعمل رجالهم صلفا وارهاقا مما لا قبل لنا على المزيد من الصبر عليه فاضطررنا في نهاية الأمر إلى تسيير جيشنا إلى الحجاز وإذا سمعت مني كلمة- جيش فليس ذلك الجيش إلا أولئك البدو البواسل الذين تشاهدهم حولك هنا وهناك- قبلنا ذلك وكان يقيننا أننا نطهر أرض الحجاز من أهل البغي ونؤمن طريق الحجاج ونحمي أرواح المسلمين، ليس في نيتنا أن نملك الحجاز لذاته أو نزيد ملكنا بسطة وسلطاناً، فقد كنا نعلم أن لأهل الحجاز عقائد وتقاليد تخالف عقائدنا وتقاليدنا، وهناك عصابات القتل والنهب والأخلال بالأمن من الصعب قطع دابرها أو تحويل عقائدهم وأحكامهم إلى مثل الحال في بلادنا نجد، وكنا نعلم أكثر من ذلك أن امتلاك الحجاز ربما يسبب لنا متاعب ويفتح الباب لتدخل بعض الدول الأوروبية معنا ولكنا خضنا الحرب مع ذلك تحت تأثير غرضنا الأسمى



الملك عبدالعزيز مع مرافقيه في البصرة
على يمينه الشيخ خزعل أمير عربستان، أحمد الصانع، وعبدالله المنديل، وعدد من الأمراء المحليين.

الذي أسلفت بيانه وهكذا كتب لنا النصر بعد حرب لم تدم طويلاً بسبب تذمر الحجازيين من سوء حكم الشريف حتى لقد كان رجالنا لا يلقون في أكثر المواقع الحربية مقاومة تذكر وكنا كلما دخلنا مكاناً هلل بنا أهله كافة بل ما كدنا نطرد الشريف وعصبته ونقبض على ناصية الأمور في الحجاز ونعلن لأهلها عدم رغبتنا في حكم الحجاز حتى اجتمع زعماؤه وأصحاب الكلمة فيه وأجمعوا رأيهم على مبايعتنا الملك فيه وهكذا لم نر بدا من أن نقبل هذه البيعة وأن نقبل حكم الحجاز بدين الله وسنة نبيه الكريم.

وسألنا جلالته- وماذا أبدلتم من نظام الحكم في الحجاز؟

فأجاب جلالته: أن النظام الأساسي للحكومة لم يتغير فأبقينا كبار الموظفين الذين عهدنا فيهم الصدق والإخلاص لنا، بل الذين كانوا في مقدمة الذي بايعونا الملك وكل ما أحدثناه هو ابدال القوانين التي شرعها لهم الشريف باتباع حكم الشرع كما هو الحال في نجد. وقد استقبل الناس ما شرعناه لهم بمزيد الابتهاج والرضى وقد كان لذلك أثره الفعّال في سرعة تبدل الحال واستتباب الأمن وقطع دابر الفوضي من أرض الحجاز كما سوف ترى عندما تزورها.

وسألنا جلالته- قلتم لنا أنه لم يكن بد من تدخل بعض الدول في شان من يحكم الحجاز فماذا تقصدون جلالتكم بتلك الدول؟

فأجابنا: تعلمون أن أكثر دول أوروبا وفي مقدمتهم إنجلترا تحكم أمماً إسلامية فكان من البديهي أنها تهتم بشؤون حجاجها. مثل ذلك أن الأزهر الشريف فيه رواق لكل دولة ومن حقها أن تتدخل مع الحكومة المصرية في كل ما يمس شؤون شيوخه وطلابه، فالمسألة في حكم الحجاز من حيث تدخل الدول لا تتعدي هذا الشأن فقط وإذا جاز لي أن أخص بعض الدول بالثناء فإنما هي إنجلترا التي برهنت في أكثر من موقف على انها لا تبغي بنا تحكماً فيما هو خارج عن حدودها فما دام رعاياها من

الحجاج في أمن واطمئنان وأسباب رعاية صحتهم متوفرة بينهم فهي لا تحرك شأناً قلّ أو عظم.

سألنا جلالته- وما رأيكم في الخلافة الإسلامية ولماذا لا ترغبون فيها؟

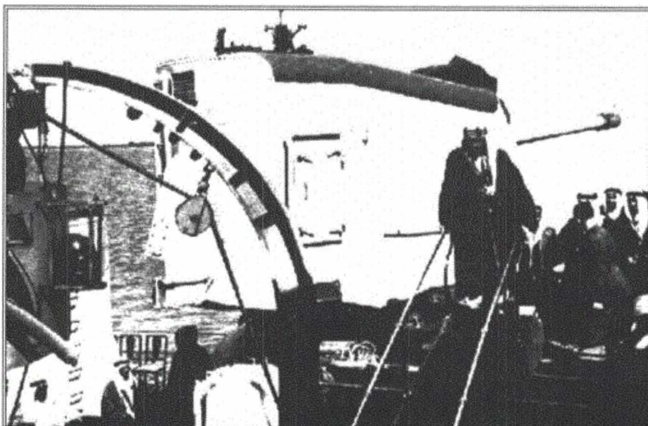
فأجابني مبتسماً: أني أعتذر لك عن الخوض في هذا الشأن الخطير لأسباب أراها لا تتفق مع تمسك بلادنا بنصوص حكم الشرع ولا أرى من اللياقة وحسن المجاملة أن أنبسط معك في هذا الموضوع.

قلنا لجلالته- وما رأيكم في توظيف أذكياء المصريين في وظائف دولتكم؟

فأجابنا جلالته قائلاً: إن حبي وتقديري لأبناء مصر فوق ما تتصور أنت فهذا مستشاري الأمين ومساعدي الأيمن **فضيلة الشيخ حافظ وهبه** له عندي المقام الأسمى وعظيم التقدير وإني أرحب بمن يرغب في تولي



الملك عبدالعزيز يستقبل ضباط بعثة عسكرية أمريكية بمجلسه في قصر خزام - جدة ١٩٤٥م.



الملك عبدالعزيز ينتقل من السفينة مرفي إلى السفينة كونسي لمقابلة الرئيس الأمريكي فرانكلين روزفلت في البحيرات المرة في قناة السويس عام ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م.

مناصب البلاد من أبناء مصر لولا أني أعرف بأن مالية الدولة لاتتفق وما يستحقه أبناء هذا البلد الغني الوفير الخيرات وإني أرجو الله أن يتسع نطاق العمران في بلادي على مدى الأيام وتزيد موارد دولتي فيكون المجال فسيحاً أمام هؤلاء الأخوان الذين أتمنى وجود أكثر عدد منهم بين موظفي حكومتي.

قلنا لجلالته: وما رأيكم في حادث المحمل المصري؟

فأطرق جلالته قليلاً ثم قال: ليت تلك الساعة العصيبة التي وقع فيها هذا الحادث المذكور لم تكن مسطورة في حساب الدهر فقد جرها أناس لاينظرون إلا إلى أبعد من أنوفهم وهم في ساعة غليان. أحمد الله الذي كتب لحامية المحمل المصري السلامة ولم يحملنا وزر ما جرى أو ما كان

أن يكون فمصر هي أقرب دول الإسلام جواراً لنا وجلالة مليكها فؤاد الأول له في فؤادنا أجل مكان وإني أؤكد بأنه على توالي الأيام سيدرك أمثال الذين أثاروا هذا الحادث برعونتهم أن لا شيء أحب إليهم من تمتع الأراضي المقدسة بأعظم أنواع السلام والطمأنينة.

وكان هذا خاتمة الحديث مع جلالته وبعد أن شكرنا ما لقينا في بلاده من ضروب الحفاوة والإكرام وما خصنا به جلالته وسائر أفراد أسرته الكريمة من الرعاية والعطف استأذناه في السفر إلى مكة المكرمة.

أم القرى
مكة المكرمة

لا نأتي على نهاية الرحلة حتى نكون قد انتهينا بالقرّاء من وصفها، فيكون بذلك مسك الختام. ولقد أسلفنا القول بأننا سنقتصر هذا على وصف رحلتنا في أرض الحجاز بعد أن قضينا نيفاً وشهراً في عاصمة نجد وأكثر من شهرين في التنقل بين بلاد نجد، وكان في نيتنا أن نقوم برحلة طويلة نستعرض فيها سائر مدن الحجاز لولا أن داهمنا القيظ بخيله ورجله فقط كانت درجة الحرارة في شهر مارس أشد منها في شهر يوليو بالقاهرة- حيث نصطليها الآن- وعلى ذلك لم نر بدًّا من الاقتصار على زيارة مكة المكرمة وفي الواقع أنها كل شيء في الحجاز بل هي الحجاز كله فأم القرى هي مظهر حياة الحجاز والحجازيين، على أنها في الأثناء الأخيرة وبعد أن حكمها الوهابيون قد تطورت تطوراً يدفع الباحث الرحالة إلى استطلاع قديمها وجديدها.

تركنا «الرياض» وكان من حسن الحظ أن رافقنا في رحلتنا منها إلى أم القرى سعادة الطيب بك الهزازي رئيس ديوان جلالة الملك ابن سعود يحمل الهدية السعودية إلى صاحب السمو الأمير فاروق ولي عهد الدولة المصرية وهي الجياد الأربعة التي وصلت إلى مصر منذ شهرين فقطعنا ستة أيام على ظهور الإبل لم نشهد في طريقنا أثراً لبلد إلى أن صادفتنا قرية تُدعى «الشعرا» هي بمثابة محط لرحال القوافل وتزويد رجالها بما

يحتاجون إليه من مؤونة وماء ولهذا السبب ترى أسعار الحاجيات فيها مرتفعة جدًّا، وتركنا هذه القرية وواصلنا السير بين وديان وحزون فتارة نصعد إلى هضاب عالية وقمم جبال شامخة ثم ننخفض إلى سفوح بعيدة الغور وعرة المسالك حتى إذا احتجنا إلى الماء لم نجد حاجتنا منه إلا من آبار بعضها ذات ماء آسن أو مالح، وهكذا قطعنا عشرة أيام على هذه الحال إلى أن بلغنا بقعة يسمونها «السيل»[1] وقد سميت كذلك لوقوفها في سفح سلسلة جبال تنحدر من قممها مياه الأمطار فتكون شبه بحيرات صغيرة وفي هذه البقعة يتحتم على قاصدي أم القرى أن يحرموا استعداداً لدخول المدينة المقدسة[2]، فخلعنا ملابسنا العادية وأحرمنا وواصلنا السير حتى إذا بانت امام أنظارنا قباب مكة المكرّمة ومبانيها الشاهقة مع رجال القافلة قائلين «**لبيك اللهم لبيك لا شريك لك، السعد والخير بين يديك**» وفي مساء ذلك اليوم بلغنا أبواب مكة فكان أول ما قمنا به أن طفنا حول البيت الكريم وسعينا بين الصفا والمروة سبع مرات، وهذا فرض واجب على كل داخل مكة، وكان رجال الحكومة قد أعدوا لنا منزلاً خاصًّا قضينا فيه ليلتنا وفى اليوم التالى قابلنا سمو الأمير فيصل نائب جلالة والده في حكم الحجاز فشاهدنا فيه أميراً عربيًّا حلو الشمائل عذب الحديث ذكي الفؤاد وكان ارتياحه إلى رحلتي عظيماً ولم ينس أثناء الحديث أن يذكر

---

(١) السيل هو مكان لإحرام أهل نجد يقع بعد عشيرة قرية الزيمة ويذكر الأمير طلال أن والده الملك عبد العزيز عندما ذهب إلى الحجاز بعد أن فتحت على يد قواته العسكرية مر على عشيرة ثم صعد إلى قرية السيل فأحرم فيها هو ومن معه من الرجال ثم أنحدروا في وادي السيل ومروا بقرية الزيمة فاناخوا فيها قليلاً ثم تقدموا بعد الظهر مكبرين ملبيين مهللين «لبيك اللهم لبيك لبيلك لا شريك لك لبيك» راجع طلال بن عبد العزيز: صور من حياة عبد العزيز، ص ٤٨.

(٢) ميقات أهل نجد ولمن يأتي من الطائف هو قرن المنازل وتبعد ٩٤كيلومتر جنوب مكة، راجع الشيخ يوسف العاملي: معالم مكة والمدينة بين الماضي والحاضر، ص ١٣٧.

مصر وجلالة مليكها ورجال الأقلام في مصر بنوع خاص بأحسن ما يذكر من طيب الحديث[١].



الأمير فيصل، نائب الملك في الحجاز، الابن الثاني للملك عبدالعزيز.

(١) ولد الأمير فيصل في إبريل عام ١٩٠٦م وتربى في بيت جده لأمه الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف آل الشيخ وتلقى تعليمه في أصول الدين ثم تدربَ على الفروسية والإدارة والسياسة من خلال مجالس أبيه، فأصبح سياسيًا محنكاً رغم صغر سنه قد شارك أباه عبد العزيز في المعارك لتوحيد المملكة، وتقلد عدد من المناصب في عهد أبيه حيث كان نائباً للملك عبد العزيز على الحجاز عام ١٩٢٦م ثم رئيساً لمجلس الشوري عام ١٩٢٧ ثم وزيراً للخارجية عام ١٩٣٠، كما تولى ولاية العهد في عهد أخيه الملك سعود ثم رئيساً لمجلس الوزراء، وقد إستشهد الملك فيصل يوم الثلاثاء ٢٥ مارس عام ١٩٧٥م، وخلفه في الحكم ولي عهده الملك خالد بن عبد العزيز، **راجع المملكة العربية السعودية في مائة عام، ص ٧١- ٧٣.**

ومما لاحظنا وكان آنئذ شهر رمضان أن أكثر المتاجر والحوانيت مغلقة وحركة المارة في الشوارع خفيفة وهي حالة تختلف اختلافاً كليًّا عن مثلها في سائر المدن الإسلامية الأخرى. وقد بحثنا عن السر في ذلك فعرفنا أن سكان مكة ينقطعون بكلياتهم وجزئياتهم خلال شهر الصوم للعبادة والتقديس ونسيان متاع الدنيا ومشاغلها.

ومكة مدينة كبرى بحق أكثر مبانيها مشيدة بالأحجار ذات وجهات بارزة بشكل «مشربيات» بعضها على نمط عربي بحت والبعض الآخر يشبه المباني المصرية التي شيدت خلال نصف القرن الماضي[1]، وهي كثيرة

---

(١) **يذكر حافظ وهبة بيوت مكة فقال**: ولقد كان في مكة كثير من الآثار التاريخية مثل: مولد النبي، بيت خديجة، بيت أبي بكر، وغيرها من الآثار، ولكن الإخوان هدموا هذه الآثار ما هدموه من القباب والقبور، لأن هذه الأماكن إتخذت مصدراً لإبتزاز أموال الحجاج فساداً للذريعة أزالوا كل أثرها، ويقول المؤرخون للحركة السعودية الأولى: إن مكة والمدينة في أثناء الحكم السعودي في القرن التاسع عشر الماضي، قد أزيل منها كل الآثار التاريخية التي كان يتبرك بها الحجاج. وبيوت مكة من الحجارة، وهي في نظافتها خير من سائر بيوت جزيرة العرب؛ غير أن نظام الحمامات لا يتبع النظام الصحي، وقد عمل سلاطين الأتراك مجرى كالمجاري التي تعمل في المدن، ولكنه ليس عاماً من جهة، وغير واف تماماً من الوجهة الفنية، ونظام الشرب على الطريقة القديمة؛ فالسقاءون هم الذين ينقلون الماء إلى البيوت، إما بالقرب أو صفائح الغاز، ومكة كالبصرة والقطيف في كثرة البعوض، ولكنه من النوع الذي لا يحمل جراثيم الملاريا كما هو الحال في بعض المدن الحجازية الأخرى ولم تعمل إدارة الصحة أو البلديات حتى الآن عملاً جديًّا لإبادته، فلعل هذه الإدارات تشمر عن ساعد الجد وتقوم بحملة عنيفة لتخليص البلد من هذا العدو الخبيث؛ ولاشك أن جلالة الملك سعود سيكون أكبر مساعد للعاملين، وأهل مكة والمدينة يعنون بنظافة بيوتهم، كما يعنون بنظافة أبدانهم وملابسهم أكثر من سواهم من سكان جزيرة العربي ويعيش أهل مكة على ما يكسبونه من وفود الحجاج، وهو مصدر خير عظيم إذا كثر الحجاج، أما إذا قل عددهم فلا يتصور أحد ما يعانيه هؤلاء من صنوف الضيق، ومدينه مكة في طرقها ومبانيها ونظامها =

الأسواق يجد فيها المسافر كل ماتشتهيه نفسه من الحاجيات من ملبس ومأكل وكماليات ولا سيما بعض الزخارف التي يجيدها صناع أصلهم من الهند والعراق والشام وبعض أهل مكة أنفسهم، فأسواق الحرير مثلاً مع أن دودة القز لا تعيش في الحجاز وقزها يجلب من دمشق الشام وبيروت، يشتغلون بصنعها حتى إذا عرضت مصنوعات مكة الحريرية على طلابها ميزوها وأيقنوا أنها من صنع مكة، على أن سائر السلع والبضائع مرتفعة الأسعار حتى الفاكهة وبعض الخضروات بسبب استجلابها من الخارج وضرب الرسوم الجمركية فادحة عليها، أما اللحم والسمن فكثير جدًّا وأثمانه رخيصة عنها في مصر.

أما الحالة الصحية بسبب قدم المدينة وضيق شوارعها وعدم تنسيقها وشدة حرها وعدم اعتناء الحكومات البائدة بتوفير أسباب الصحة العامة فليست حسنة، ولكن الحكومة الحاضرة شرعت في استجلاب المرشحات للمياه وتوسيع بعض الشوارع واضاءتها، كل ذلك يحمل على الاعتقاد بحسن الحال في مستقبل الأيام(١).

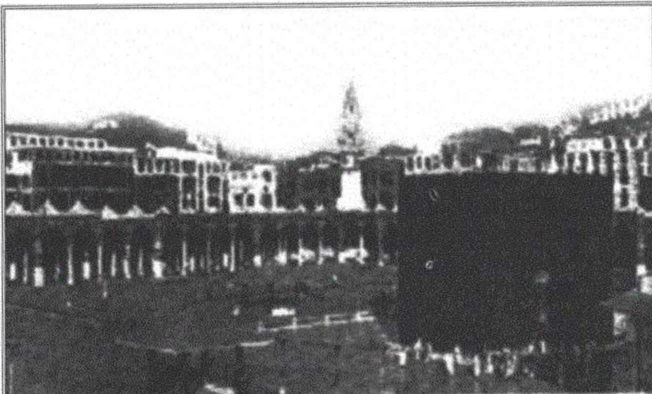
= الصحي ليس كالقاهرة أو دمشق أو بغداد، وهذا التقصير تقع تبعته على المسلمين عامة، وعلى الحكومة التركية التي حكمت البلاد قروناً عديدة؛ ولا شك أن أشراف الحجاز يتحملون قسطاً من التبعة، لأنهم كانوا الحكام الحقيقيين لمكة؛ فقد كان بوسعهم لو كانوا ذوي بصائر نافذة، وعقول راجحة وعلم بتطورات العالم، أن يجعلوا الحجاز وسكانه في مستوي خير من مستواه الحالي، راجع حافظ وهبه: في قلب جزيرة العرب ص ٣٠-٣١.

(١) فقد إنضمت مملكة الحجاز حديثاً إلى المعاهدة الصحية الدولية لسنة ١٩٢٦م، وهي تشارك في أعمال المكتب الدولي للصحة العمومية المكلف بتطبيق وتأويل ومراجعة التشريع الصحي العالمي المضمون في المعاهدات الصحية الدولية. في الوقت نفسه أصبحت حكومة الحجاز بالمملكة تنهج سياسة صحية جديدة لوقاية الصحة العمومية ملائمة للبلد نفسه، وكذلك للبلدان العظمي الأجنبية التي يزور حجاجها الأماكن المقدسة، من قبل كانت هذه البلدان تطبق على الحجاج إذا كان بإمكانها =

ويبلغ تعداد سكان مكة والقرى المجاورة لها زهاء مائة الف نسمة وأكثرهم طوال القامة يضرب لونهم للسمرة مع نحافة غالبة في الأجسام على أنهم يتمتعون بصحة جيدة، وظاهر أن اختلاط العنصرين التركي والمصري بهؤلاء السكان أحدث تغييراً في لهجة حديثهم ودرجة تفكيرهم وذهنياتهم، وهناك عدد غير قليل من الأغنياء الموسرين الذين أثروا من تبادل المتاجر والأرباح الطائلة التي دخلت عليهم في أوقات الحج، يجد الزائر المصري في منازلهم أدوات الترف وجمال التنسيق مايجده في بيوت بعض كبراء مصر وتناول القهوة هناك شائع على الطريقتين المصرية والتركية إلّا أن شرب الشاي هو الأكثر شيوعاً.

أما عقائدهم الدينية فهم أقل تعصباً للدين من أهل نجد، وقد لاحظت أن بعضهم مع احلال الحكم الوهابي وتطبيقه في الحجاز إلّا أنه لا يزال يستبيح لنفسه بعض المحرمات الوهابية، مثال ذلك أن بعضهم لا يزال على عادته في تدخين الدخان والتمباك إلّا أنه لا يجسر على تدخينه جهاراً، وهناك بعض اصحاب القهوات ينصبون أستاراً داخل محلاتهم يستتر وراءها مدخنو النارجيلة والسجائر.

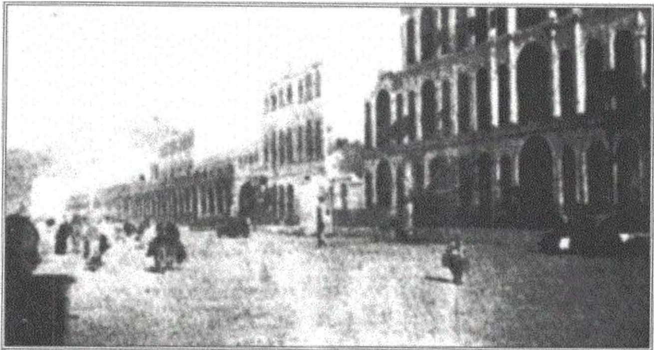
= أن تختار الحجاج وتلقحهم وتراقبهم طبيًّا خلال مدة سفرهم، ولكن عند وصولهم إلى الأماكن المقدسة كانوا لا يخضعون لأي وقاية صحية، كما أن بلدانهم التي قدموا منها كانت تجهل كل شيء عن الظروف الصحية للحجاج طيلة مدة إقامتهم، وما كان بوسعها إلّا أن تستقبلهم عند عودتهم، وتعزل من كانوا يعودون نحو الشمال بمركز طور، وتضعهم تحت المراقبة حتى نزولهم في الميناء المقصود، من الآن فصاعداً أصبحت حكومة الحجاز عضواً في منظمة وقاية صحة الحجاج، إلّا أن مصلحتها في هذه الوقاية تلتبس بمصالح الدول الأخرى، حتى الآن كل التدابير المتخذة تجاه الحجاج التي كانت مفيدة بصفة غير مباشرة للحجاج تتعلق أساساً بالجدري وبالكوليرا، مارسيل كليرك **تطور الحماية الصحية أثناء الحج إلى مكة**، ترجمة محمد الحناش، **الدارة** العدد ١، ٢، للسنة السادسة والعشرون ١٤٢١، دارة لملك عبد العزيز، ص ٢٦٦- ٢٦٧.



(١)

(٢)

المسجد الحرام في مكة المكرمة ١-٢.



القصر الملكي في مكة

وللماء هناك شأن يذكر ولا سيما في موسم الحج فيكثر استهلاك الماء من الآبار فتقل مياهها بطبيعة الحال ولا سيما في الطريق ما بين مكة وجبل عرفات. وكان من أهم ما اتجهت إليه أنظار الملك ابن سعود بعد فتحه الحجاز هو العمل على حل هذه المشكلة الهامة فأمر ببناء أحواض تخزن فيها المياه بكثرة قبل تدفق سيول الحجاج وبذلك يجدون حاجتهم منها بسهولة وبثمن مقبول. والماء هنا نوعان: عذب ومالح، فالعذب يستخرج من عين تسير في قناة من الحجر تحت الأرض وهي المعروفة «بعين زبيدة» ويبتدئ أولها قبل منطقة السيل التي أسلفنا ذكرها، ويروى أن الملكة زبيدة زوجة هارون الرشيد هي التي أنشأت هذه القناة فسهلت على أهل مكة سبيل الحصول على المياه العذبة، ولهذه العين عدة فتحات يزدحم عندها السقاة لأخذ حاجتهم منها ويحدثون ضجيجاً يصم الآذان[1]. أما المياه المالحة فتستخرج من آبار ارتوازية وهي ليست

(١) بعد دخول الملك عبد العزيز الحجاز أمر بتعمير عين زبيدة سنة ١٩٢٥م على نفقته الخاصة بعد إنقطاع الماء عن الوصول إلى مكة لمدة ٣ أشهر نتيجة الخراب الذي =

مالحة جدًّا ولكن الحاجة تدفع بعض الناس إلى استعمالها، ومياه «بئر زمزم» الكائنة وسط الحرم الشريف من هذا النوع لا يتناولها الناس إلا على سبيل البركة.

ويعتمد أهل الحجاز في معيشتهم على موسم الحج الذي يدوم حوالي ثلاثة شهور، فالمباني تؤجر لسكنى الحجاج بأجور مرتفعة والتجار والصناع يعرضون ما يدخرونه من البضائع والمصنوعات على الحجاج، وهناك طائفة الصيارفة ينتشرون في زمن الحج ويربحون أرباحاً طائلة من تبادل أنواع العملة المختلفة التي يحملها الحجاج. وعلى وجه العموم فإن أهل مكة يعتمدون على قوام معيشتهم خلال بقية ايام العام على مايجنونه من أرباح مواسم الحج.

ومما يلاحظه زوار مكة كثرة الشحاتين من السودانيين الذين يسمونهم «التكارنة» وهؤلاء ممن تضيق بهم سبل العيش فينزحون إلى جوار الحرم الشريف رجاء العيش مما يجود به أهل الخير، وقد شهدت نفراً من أولئك التكارنة بحالة تفتت الأكباد وليست أدري ما هو نصيبهم من حسنات حكومتهم الغنية في ديارهم.

مجلس الشورى

أما نظام وضع الحكومة الحجازية فباق كما كان عليه في الزمن السابق من حيث تنظيم الإدارات والاختصاصات وكل ما استجد هو استبدال القانونين المدني والجنائي بانفاذ أحكام الشريعة السمحة وفقاً لما أفضي به الملك عبد العزيز في حديثه، وقد زاد جلالته بأنه أنشأ

= أصابها بسبب إنسداد قنواتها فتم الإصلاح بتكلفة ٢٠٢٣ جنيهاً إنجليزيًّا، راجع ناصر بن على الحارثي: منهل ماء في دحلة الرشد في مكة المكرمة من عهد الملك عبد العزيز، مجلة الدارة، العدد الأول لسنة ١٤٢٢هـ، ص٥٠.

مجلساً للشورى على نحو ما وافتنا به الأنباء الأخيرة، ولعل هذا أجل ما استبشر به الحجازيون وارتاحت له سائر الأمم والشعوب ذات الاتصال بالأراضي المقدسة، فلسوف يكون من شأن هذا المجلس العمل على نشر العلم ومحاربة الأمية وتقوية أسس المعاهد وأهمها «المعهد السعودي» الذي تلقن فيه العلوم الدينية والعمرانية الراقية التي يقوم بتدريسها جماعة من أفاضل الأساتذة المصريين والسوريين وكذلك فإنه على الرغم من المنشئات الصحية التي أقامها أخيراً الملك عبد العزيز وأنفق في سبيلها الأموال الطائلة فإن المأمول على يد مجلس الشورى الجديد أن تزداد العناية في هذه الناحية والاكثار من المستوصفات ومخازن الأدوية وإعداد الأطباء الاخصائيين في مختلف الأمراض، وكذلك قام بتسهيل سبل المواصلات وتعميم المحافظة على الأمن العام.

الأمير فيصل بن عبد العزيز

كان جلالة الملك عبد العزيز بحكم اضطراره لمباشرة شؤون نجد على الأخص ولأنه في الواقع لا يريد أن يحصر همه في إدارة شؤون الحجاز فقد اقتضت حكمته أن يولي سمو الأمير فيصل ثاني أنجاله بمثابة قائمقام له في إدارة حكم الحجاز بعد أن آنس من تعلق الحجازيين بذاته وميل الشعب الحجازي إلى تسيير شؤون الحكم على مقتضى نظام الشورى. وقد أصاب في ذلك كل الاصابة فقد أظهر هذا



الملك فيصل - أثناء توقيعه على ميثاق الأمم المتحدة في مؤتمر سان فرانسيسكو ٢٦ يونيه ١٩٤٥م. ويظهر في يمين الصورة الأمير محمد بن عبدالعزيز والأمير فهد بن عبدالعزيز والأمير عبدالله الفيصل والأمير نواف بن عبدالعزيز.

الأمير فيصل الصغير السن **حكمة الشيوخ ولباقة الحكماء** فجمع القلوب حوله حتى أن ممثلي الدول الأجنبية الذين خالطوه بحكم مهامهم الرسمية في عواصم أوروبا في خلال الصيف الفائت مما أيد حسن ظن هؤلاء وأولئك فيه فنشر دعاية العرب بين أمم الغرب من طريق غير مباشر وعاد يحمل إلى قومه وبلاده ثقة الأمم المتمدنة بعد أن كان الاعتقاد السائد بينهم إن بلاد العرب يحكمها أناس بعيدون عن المدنية مجردون عن صفات التهذيب الإنساني.

الحج ومراسيمه

ومما يذكر حيال الحج ومراسيمه أن جماعات المطوفين كانوا إلى ما قبل حكم الملك ابن سعود في الحجاز أشبه بجماعات التراجمة الذين يصاحبون السياح الأجانب في مصر فيمثلون معهم شتى ضروب القبائح ويرسمون أمام أنظارهم أشنع صنوف الموبقات ويصورون لهم الأمة المصرية تصويراً ذميماً مما حمل الصحافة المصرية في الأيام الأخيرة أن تطلب من الحكومة المصرية الوقوف في وجههم ومصادرتهم وسن اللوائح لإيقافهم عند حدهم محافظة على كرامة مصر وسمعتها.

وقد كان أولئك المطوفون يتلقفون الحجاج ولا سيما بسطاؤهم فيبتزون أموالهم ويلقنونهم أقوالاً خرافية منافية للشرع والعقل معاً. مثال ذلك أن يمسك أحدهم بحاج ساذج ويلقنه العبارة التالية بصوت خافت على باب الحرم الشريف كأنما هو ينزل عليه آية من السماء وهذا هو **«اللهم أني نويت أعطاء مطوفي مبلغ كذا من المال بنية الله ورسوله»** فإذا ما نطق الحاج بهذه الكلمات حسب أنه سجلت عليه في لوح مسطور لا سبيل إلى نقضه بحال حتى إذا فرغ من طوافه أدى ما تعهد به لذلك المطوف المحتال بغير إمهال- وهكذا دواليك، وأكثر منه ممّا كان يجري في السر والعلانية، وقد يكون بعضه ما يغضب الله ويندي له وجه

الآداب. أما الآن فقد قضى نظام الحكم الجديد على تلك المظالم والبدع السخيفة، ووضع أولئك المطوفون تحت مراقبة شديدة، فإن أقل شكاة يرفعها أحد الحجاج ضد أحدهم تكون كافية لإبعاده عن حظيرة المطوفين.

أما مشكلة الأمن العام التي كانت هي في الواقع أم المشاكل ورأس كل الخطايا مما كان يحسب له المسلمون الراغبون في حج بيت الله الحرام أكبر حساب فقد كانت في طليعة المشاكل التي استطاعت الحكومة الجديدة حلها على أهون سبيل، فمنذ حل حكم الشرع محل القانون المدني والجنائي، وأدرك دعاة الشر والأجرام ما هو حكم الشرع حيالهم نزعوا عنهم ثيابهم وغسلوا أيديهم من أوزار الماضي ووضعوا أنفسهم رهن ما يقضي به حكم الشرع إذا ما حدثتهم نفوسهم بمخالفة ماتقضي به هاتيك الأحكام، فكان أهم ما انقطع دابره تلك الفعلة المشؤومة التي كان يلجأ إليها بعض أشرار البدو الحجازيين ولا سيما رجال قبيلة عتيبة وبني هذيل وحرب الذين كانوا يستدينون الأموال من بعضهم بعض على أن يقوموا بسدادها من اسلاب الحجاج ومن يغنمون من أموالهم فقد عمد الملك عبد العزيز فوق اعتماده على انفاذ حكم الشرع إلى بسط يده بالاحسان إلى فقراء هؤلاء البدو(١)، وبذلك أمنت القوافل التجارية على ما تحمله من

(١) قبيلة عتيبة وبني هذيل إما هذيل فهي من قبائل الحجاز المهمة وتنقسم إلى قسمين شمالي وجنوبي وتقع ديار هذيل الشمالي في أطراف مكة من جهة الشرق والجنوب وبالأخص في أطراف مكة والطائف بقرب جبل برد وجبل ذكا المشهور ويتالف القسم الشمالي من سبعة أفخاذ هم المطارفة والمساعيد والسواهر ولحيان وعمر والجنابر، أما القسم الثاني فيدعي هذيل اليمن ويتألف من الأفخاذ الأتية الندوية ودعد والسراونة والعاهلة وجميل، قبيلة حرب أكثرها من العدنانية وهي غير منحدرة من سلالة واحدة بل هي مجموعة من الأحلاف يدخل فيها كثير من العناصر المختلفة في النسب، تقع أماكنها في نجد والحجاز وفي الحجاز تمتد ديارها من جوبي ينبع إلى القنفذة على محاذاة الساحل وحول المنطقة الجبلية الممتدة من =

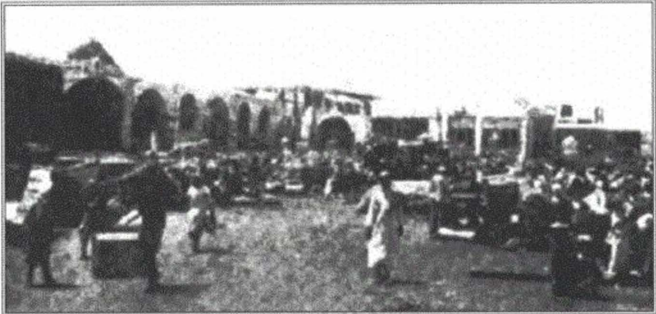
بضائع وسلع مهما بلغت قيمتها وأمن الحجاج كذلك على أرواحهم ومتاعهم، يدلك على ذلك أن رجال المحمل المصري عندما سافروا في العام الماضي أثبت سعادة أمير الحج في تقريره لولاة الأمور أن عصابات البدو التي اعتادت غزو المحمل ورجاله لم يبق لها أثر في الحجاز وفي هذا العام سافر الحجاج المصريون وعادوا دون أن يصيبهم أقل اعتداء حتى قال لنا أحد الحجاج «ان امرأة مصرية تستطيع أن تبرح مصر بمفردها وتقصد إلى قلب الحجاز وتقوم بفريضة الحج ثم تعود دون أن يصيبها أقل مكدر» والظاهر أن استقرار حالة الأمن حملت أحد أعضاء مجلس الشيوخ المصري على التصريح رسميًّا بأن المحمل وحرسه أصبح بدعة يجب أبطالها، وقد تألفت لجنة خاصة للنظر في هذه المسألة.

على أن هناك رأياً آخر هو أنه إذا استقر الرأي في نهاية الأمر على منع سفر المحمل فليس من العدل أن يحرم فقراء الحجاز من المبرات وخيرات الواقفين التي اعتادت مصر ارسالهم إلى الحجاز من قديم الزمان، ولعل ذوي النظر البعيد من ولاة الشأن في مصر سيراعون هذه النظرية بما تستحقها من العناية والاهتمام.

= المدينة إلى مكة وحدها الجنوبي درب الحج من بريدة إلى مكة ويقدر عددهم في الحجاز ٨٠٠٠٠ نسمة، ان قبيلة عتيبة من أعظم قبائل العرب لا يكاد ينازعها أحد السلطة في القسم المتوسط من المملكة العربية السعودية، تمتد منازلها إلى سفوح الحجاز الشرقية إلى الحرار التي بين درب الحج ونجد من الشمال والشرق وديار قحطان والبقوم والشلاوة وسبيع في الجنوب، وتنقسم إلى بطنين كبيرين هما الروقة وبرقة، راجع عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب، جـ١ ص ٢٥٩، جـ٢ ص ٧٥٢، جـ٣ ص ١٩٣.

نهاية الرحلة

جدة[1]

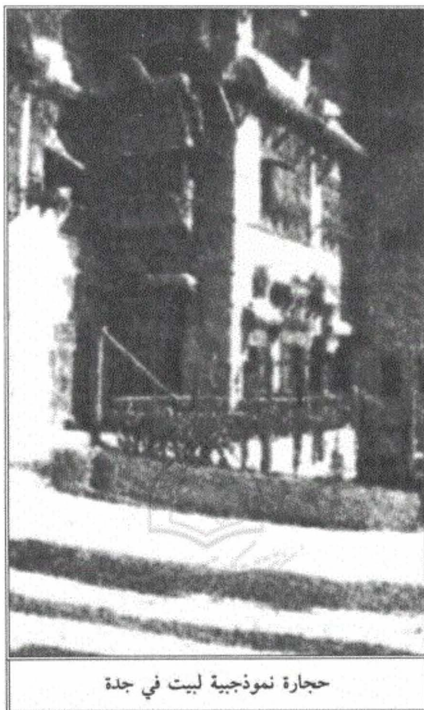


دار الجمارك في جدة

قد انتهينا من رحلتنا واستوعبنا مايهم قومنا وبلادنا الاطلاع عليه واعتزمنا مبارحة مكة فودعنا سمو الأمير فيصل الذي كان على الدوام لا يكف عن التلطف بنا والاستفسار عنا- ومن ثم استقلينا سيارة سارت بنا نحو ثلاث ساعات حتى بلغنا «جدة» بعد ان مررنا بقرية صغيرة تقع في متوسط الطريق تدعي «بحرة» وهي نقطة تتمون منها السيارات بحاجتها ومحط لرحال قوافل الحجاج الذين يستريحون فيها.

وثغر «جدة» من أهم موانئ الحجاز على ساحل البحر الأحمر

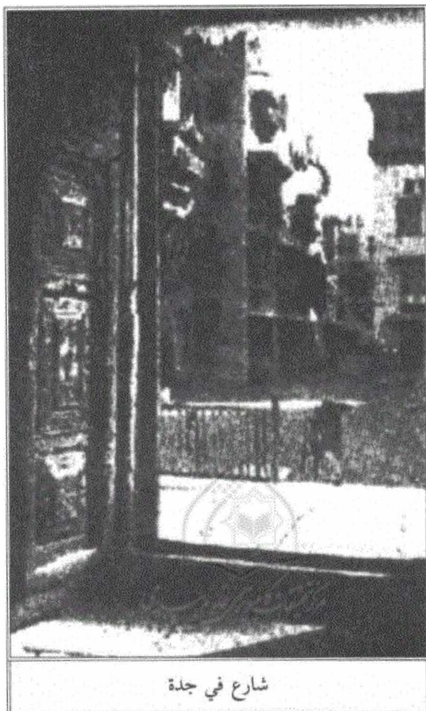
(١) جدة بالضم والتشديد وتعني الطريقة وهي على ساحل البحر الأحمر وهي فرضة مكة وبينها وبين مكة ثلاث ليال وهي من مدن الأقليم الثاني وسميت كذلك لأنه ولد بها جده بن حزم بن ريان بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة والذي أسس جده كميناء تجاري الخليفة الثالث عثمان بن عفان، راجع ياقوت: **معجم البلدان**، جـ٢، ص ١١٤؛ حافظ وهبة: **في قلب جزيرة العرب** ص ٢٢.



حجارة نموذجية لبيت في جدة

وبسبب مركزها الطبيعي يعتبر أهلها أغني من أهل مكة ومن سائر البلاد العربية في شبه الجزيرة وذلك لاتصالها بالأسواق الخارجية، ومرور البواخر القادمة من الهند ذاهبة إلى مصر وغيرها. ويحكم هذا الثغر حاكم يلقب «بالقائمقام» يعاونه رجال الشرطة.

وتوجد في جدة دور القنصليات وبعض المصارف المالية، وتقع القنصلية المصرية في بناء فخم، ولا يمر بجدة مصري حتى يلقي من عناية صاحب العزة أمين بك توفيق قنصل مصر ما يطلق لسانه بالشكر



شارع في جدة

والثناء، ولا يوجد في جدة إلّا عدد من الأوروبيين الذين يعدون بمثابة (قومسيونجية) لإستجلاب البضائع من البلاد الخارجية وتوزيعها على التجار المحليين الذين يوزعون سلعهم في داخل البلاد.

وجمرك جدة يعتبر ركناً مهمًّا من موارد الثروة للحكومة الحجازية فإن ما يجبيه من الرسوم الجمركية على الصادرات والواردات مع فداحتها يكون دخلاً عظيماً لا يستهان به.

وطقس جدة لا يعد ألطف كثيراً منه عن داخلية البلاد مع كونه على

ساحل البحر الأحمر فالحر هناك شديد، ولعل أبخرة البحر هي التي تفسد من جودة الهواء الخالص فليس يغبط أهل جدة وجودهم على الشاطئ اللهم سوي اغتباطهم بما يدخل اليهم من الأرباح وتيسير أسباب الرزق لهم.

وإلى هنا تكون قد انتهت رحلتنا وحسبنا أننا كما قدمنا للقراء لا نبغي منها سوى إيراد الحقائق من الوجهتين العمرانية والاجتماعية التي لم يسبق لسوانا معرفته والبحث فيه حتى الآن.

الخاتمة

هكذا تطورت الحال في مملكتي نجد والحجاز وتم لهما ذلك الاندماج المتين فخرجت «نجد» من عزلتها الطويلة عن بقية الشعوب الإسلامية المتحضرة وأصبح الملك عبد العزيز آل سعود هو صاحب الكلمة النافذة والصوت المسموع في الأراضي المقدسة وشؤونها وبات اسمه علماً بين ملوك الإسلام يشار إليه بالبنان، وقد أثبت بالفعل لا بالقول أنه جدير بهذا المُلك المترامي الأطراف الجليل الشأن في عيون سائر المؤمنين، وأنه بعد أن طهر الأراضي المقدسة من ادران المفاسد والمظالم التي نشرها رجال الحكم البائد استطاع أن يقطع دابر عصابات النهب والسلب ويضرب بعصا من حديد على أيدي قطاع الطريق، فأمن سبل الحج لكافة المسلمين ونظم شؤون الصحة العامة، وأقام حكم العدل بين سائر رعاياه لا فرق بين نجدي وحجازي. ومما لا ريب فيه أن بلاداً كهذه قد خرجت من عزلتها ووضعت يدها بأيدي جاراتها من البلاد المتحضرة سيكون لها حظها من الحضارة بحكم المجاراة على مر الأيام.

ومن يعلم ما كانت عليه الحجاز قبل أن يحكمها الملك عبد العزيز آل سعود وكيف كانت الفوضى ضاربة أطنابها وأموال الناس وأرواحهم في خطر دائم من اعتداءات بعض البدو الحجازيين واستخفافهم بالنظام والحكومة القائمة بالأمر وهذا ركب المحمل المصري كان على الدوام

هدفاً لاعتداء المعتدين، وفتك الفاتكين، فبات الحجاج يسافرون أفراداً وجماعات حتى دون أن يرافقهم حرس المحمل ثم يعودون دون أن يصيبهم أقل أذى. ولم يكن هذا شأن حجاج مصر وحدهم بل هي الحال مع سائر المسلمين الذين يحجون بيت الله الحرام.

وإذا كان كل شيء في أوله صعب فلا عبرة البته ببعض ما قام من وجوه الخلاف في الرأي بين الحكومتين المصرية والحجازية بشأن المحمل المصري.

وكذلك فإذا كان بعض الذين لا يحلو لهم الصيد إلا في الماء العكر قد زين اليهم أن يثيروا العواصف ويشيعوا الأكاذيب عن حكم الحجاز وآراء الوهابيين الدينية قصد تنفير الأمم الإسلامية من حكم الملك عبدالعزيز فحسبنا أن مثل هذا وأكثر منه يقع عادة بين سائر الأمم ولا سيما عقب الفتوح والانقلايات السياسية ولسوف يدرك هؤلاء وأولئك من حسن نيات الملك عبد العزيز وضروب الاصلاح في بلاد الحجاز ذاتها مايسكت ألسنتهم وينطقهم بالحق من حيث لا يشعرون. على أن دعاة هذه الدسائس والحمد لله ليسوا من البراعة والدهاء ما يخشى شرهم ويؤثر سوء فعلهم فجعلهم من حثالة الناس أو أذناب الأعداء وأنصارهم ممن لا يعتد بشأنهم ولا يؤبه بحالهم.

وانا لنسأل الحق جلت قدرته أن يكتب للإسلام والمسلمين اتحاد الكلمة ورفع راية الإسلام بين الأنام وأن يوطد دعائم الحب والولاء بين الملوك الناطقين بالضاد وأمرائهم وأن يوفقهم إلى ما فيه مرضاة الله ورفع شأن المؤمنين بمنه وكرمه.

فهرس المحتويات